فن الرسائل الإخوانية لابن برد الأصغر

الأنماط والبناء

دكتور

محمد عبدالحكيم محمد الفقى

مدرس بقسم الأدب والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

فرع البنين بالديدامون شرقية

فن الرسائل الإخوانية لابن برد الأصغر
الأنماط والبناء

دكتور
محمد عبدالحكيم محمد الفقى
مدرس بقسم الأدب والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
فرع البنين بالديدامون شرقية

المقدمة

لله الكريم المنان، خلق الإنسان علمه البيان، والصلاة والسلام على خير الأنام، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه مادامت الأيام.

وبعد:

فلا تزال الدعوة إلى اهتمام الباحثين بفنون النثر العربى قدر الاهتمام بالشعر قائمة ، ولايخفى على المهتمين بالتراث الأدبى ما يحويه من كنوز تحمل قيما فكرية ونفسية وفنية ،ترفد دارس الأدب بروافد لايتكر أثرها.

ويعد القرن الخامس الهجرى العصر الذهبى للنثر الأندلسى فى أرقى ما وصل إليه فى تنوع فنونه ،وكثرة أعلامه، وتعدد موضوعاته وتميزه بسمات وخصائص فنية أهلته لأن يكون من أرقى ما أبدعته خواطر الكتاب ، وخطته أقلامهم ، فأصبح ما أبدعوه مثلا يحتذى ، وهدفا يرتجى، لكل من أراد الإبداع والتفوق ،ولنثره البقاء والخلود.

وجاء (ابن برد الأصغر) علما من أعلام هذا العصر، وأستاذا من أساتذة الكتابة الأدبية، الذين كان لهم قصب السبق إلى ترسم أصولها وقواعدها الفنية.

لهذا توجهت همتى إلى دراسة الرسائل الإخوانية فى نثره ، والتى جعلها الكاتب معرضا لإظهار قدراته الأدبية ومهاراته الفنية، ، وعالج فيها أغراضًا عدة ذات صلة وثيقة بالأدب والعواطف الإنسانية.

وقد جاءت هذه الدراسة فى مقدمة وثلاثة مباحث يسبقهما تمهيد وتعقبهما خاتمة، ثم ثبت بالمصادر والمراجع.

التمهيد: وجعلت عنوانه(ابن برد سيرة حياة وإبداع) .

وتحدثت فيه بإيجاز عن حياته ،وأسرته ،ومكانته الأدبية.

المبحث الأول: وجعلت عنوانه (فن الرسائل الإخوانية المفهوم والقيمة).

وتحدثت فيه عن مفهوم الرسالة الإخوانية لغة وفنا ، وبيان مكانتها وقيمتها الأدبية فى نفوس متلقيها.

المبحث الثانى: وجعلت عنوانه(الرسائل الإخوانية الأنماط).

وتحدثت فيه عن الأنماط والموضوعات التى تشكلت منها رسائله الإخوانية، وقد تعددت مابين: النمط الاجتماعي، والخيالي، والفكاهي.

المبحث الثالث: وجعلت عنوانه (فن الرسائل الإخوانية البناء).

وتحدثت فيه عن البناء الفنى لرسائله الإخوانية من حيث : البناء الأسلوبى ، والبناء التصويرى ،والبناء الإيقاعى.

الخاتمة : وجعلتها نهاية المطاف ،وتناولت فيها أهم النتائج والتوصيات التى أسفر عنها البحث.

هذا مامنّ به الرحمن، ووفقنى فى إعداد هذه الدراسة، ولست أزعم أن هذا الجهد هو آخر مايمكن أن يبذل ،ولكن حسبى أنى بذلت كل مافى وسعى.وأرجو أن أكون قد وفقت فيه إلى الحق،ومـاتوفيقى إلابالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الباحث

د. محمد عبدالحكيم محمد الفقى

التمهيد
ابن برد الأصغر (سيرة حياة وإبداع)

بعد سقوط الخلافة الأموية ونشوب الفتنة البربرية سنة (٤٠٠هـ) فى الأندلس تغيرت المقاييس، وتزعزعت القيم وسط عاصفة سياسية شديدة رفعت وخفضت دون معيار صحيح فكانت كلها "شداد قبيحة لم يعدم فيها حيف، ولا فورق فيها خوف"(١).

وسط هذا المناخ المتقلب ارتفع مبدعو عصر ملوك الطوائف (٤٢٢ ــ ٤٩٥هـ) بإبداعهم الأدبى مما أدى إلى ظهور أكبر حركة أدبية كان للنثر الفنى نصيبه الواضح منها، يظهر ذلك فى تنوع فنونه، وكثرة أعلامه، وتعدد موضوعاته، وتميزه بسمات وخصائص فنية أهلته لأن يكون من أرقى ما أبدعته خواطر الكتاب، وجادت به قرائحهم، وخطته أقلامهم، فقد "أنشأوا نثرا كثيرا غزير المادة .. لا يقل فى أغراضه ولا فى تنوع أشكاله، ولا فى عمق معانيه، ولا فى جمال مبانيه عما نظم الشعراء من القريض، وذلك فى ظرف زمنى وجيز نسبيا وفى بيئة مهددة دوما بالغزو...."(٢).

وبذلك أصبحوا أساتذة لهذا الفن، وروادا له، فأصبح ما أبدعوه مثلا يحتذى؛ وهدفا يرتجى لكل من أراد لنفسه الإبداع والتفوق، ولنثره البقاء والخلود.

من بين هؤلاء المبدعين يأتى ابن برد لأصغر علما من أعلام هذا العصر ، وأستاذا من أساتذته فى الكتابة الفنية .

---

(١) الذخيرة لابن بسام ق١ / م١/ ٣٦ ت د.إحسان عباس ط دار الثقافة بيروت ١٩٧٨م .

(٢) النثر الأدبى الأندلسى فى القرن الخامس مضامينه وأشكاله د/على محمد صـ٦ وما بعدها .

وهو: أبوحفص أحمد الأصغر بن محمد بن أبى حفص أحمد الأكبر بن برد[1].

لم تذكر كتب التراجم شيئا عن نشأته الأولى وكيفية تحصيله[2]، ولا أعلم على وجه التحديد سنة ولادته ووفاته، شأننا فى ذلك شأننا مع كثير من الأعلام، لعدم توافر المعلومات الخاصة بهذا الموضوع، إذ يبقى الشخص كغيره من الناس مجهولا أو مغمورا أول ما يفتح عينيه على الدنيا، ثم يعلو شأنه، وينبه أمره، فتتجه إليه الأنظار، وقد تجاوز مرحلة من مراحل العمر، لم تحظ ـ فى الغالب ـ بالاهتمام والتسجيل من لدن مؤرخى عصره، وشهوده.

ومع ذلك فهو ينتمى إلى (بنى برد) وهى أسرة معروفة فى الأندلس، وقد نشأ بينها يتلقى عن رءوسها، ويأخذ عن كبارها. ويتتلمذ على أعيانها ،وكلهم ما بين عالم كبير، أو لغوى فحل، أو أديب ضخم، أو كاتب لا يشق له غبار، أو شاعر مفلق، أو خطيب مصقع، وكان لهذه البيئة العلمية الأدبية من أهله وذويه أثرها الطيب فى تكوينه ولكتمال بيانه، وذرابة لسانه، وحسن منطقه[3].

ولم لا: وهو القائل فى صدر كتابه الموسوم بـ(سر الأدب وسبك الذهب) "أما بعد، فإن الله تعالى ـ وله الحمد ـ جعلنا من أهل بيت أشرب حب صناعة الكلام نفوسهم، وشغل بطلب البيان والتبيين قلوبهم، فغذانا بالبحث عن الأصول، على حسب ما وهب الله تعالى لنا من المعرفة.. وأصبحنا بعد نرمى أغراض الكلام بأسهم أزرها

(١) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ١/ ٨٦ ـ وترجم له الحميدى فى الجدوة صـ١٠٧، وابن بسام فى الذخيرة ١/ ١/ ٤٨٦ وما بعدها، وابن خاقان فى المطمح صـ٢٤ ، وياقوت الحموى فى معجم الأدباء ٢/ ١٠٦، والضبى فى بغية المتلمس صـ١٥٣ .

(٢) الذخيرة ق١ م١/ ٤٨٦ .

(٣) تاريخ الأدب العربى فى الأندلس د.إبراهيم أبوالخشب صـ١٦٦.

التسديد، ونعقد مناظم القول بألسن برئ منها التعقيد ... وكان جدى أحمد بن برد ــ رحمه الله ــ بطول ممارسته لهذه الصناعة ... قد اقتعد سنامها[1]، ورفع أعلامها، وأصبح إمامها، وزين أيامها، وركب وسط مساقها، وأحرز قصب سباقها"[2].

فقد كان ابن برد الأصغر امتدادا لهذه الدوحة المباركة بعد جدد ولقب ابن برد بالأصغر كتمييز له عن جده الأكبر[3] الذى لحق به وقرأ عليه"[4] وسار على نهجه مترسما خطاه فى أدبه .

وبذلك حق له أن يفتخر بالانتماء إليه والانتساب إلى علمه الذى كان له الأثر البين فى إعداده وتهيئته، ليكون فى قائمة الكتاب البارزين، الذين حظوا بإعجاب العامة والخاصة فيقول:

من شاءَ خُبرى فأنا ابنُ بُرْدِ ∴ حَدُّ حُسامى قطعةٌ من حدى
وأرفعُ الناس بناءً جَدّى ∴ من نَظَم الألفاظَ نَظْم العقد
ونقدُ الكلام حقُّ النقد ∴ وكفُّ يالأقلام أيدي الأسد
به استضاءَ فى الخطوب الربدِ ∴ كُلُّ إمامٍ وَلِىّ عهد[5]

هذا عن أسرته.

أما مكانته: فقد كان ابن برد الأصغر علما من أعلام عصر ملوك الطوائف وبلغائه، الذين لم تحل الكتابة بينهم وبين النبوغ والإبداع فى فنون أخرى، فقد كان شاعرا مجيدا، وكاتبا فريدا، معنيا بالبحث عن قوالب فنية جديدة، وسمات تعبيرية لم تكن مألوفة، كان "حيا بالمرية بعد عام ٤٤٠هـ"[6] حيث خاض غمار الحياة السياسية كاتبا لمجاهد العامرى

(١)السنام: الوسط والجمع أسنمة- القاموس المحيط:١٤٥١(سنم).
(٢) الذخيرة لابن بسام ق١ م١/ ٤٨٧ ..
(٣) الوزير الكاتب أبوحفص بن برد الأكبر من بنى برد الذين ينتمون لبنى شهيد بالولاء،قلد ديوان الإنشاء فى دولة المنصور بن أبى عامر ثم كتب للمستعين وغيره من أمراء الفتنة فأسمع الصم بيانا وإبداعا وإحسانا توفى بسرقسطة ٤١٨هـ.انظر الذخيرة١/١/١٠٣ .
(٤) المغرب لابن سعيد ١/ ٨٦ .
(٥) السابق ق١ م١ / ٤٨٧ .
(٦) جذوة المقتبس للحميدى صـ٢٥٧ .

صاحب دانية (ت٤٣٦هـ) [١] والمعتصم بن صمادح صاحب المرية (ت٤٨٤هـ) [٢] ونال عندهم المكانة العالية حيث كان فى وقته "فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نفث فيها بسحرة، وأقام من أودها بناصع نظمه وبارع نثره"[٣].

فهو من "أهل بيت أدب ورياسة، له رسالة فى السيف والقلم، والمفاخرة بينهما،وهو أول من سبق إلى القول فى ذلك بالأندلس"[٤].

ولم لا: وهو من أسرة قرطبية لعبت دورا كبيرا فى إثراء الحياة الأدبية، وتركت بصمة واضحة فى التراث الأدبى الأندلسى فقد كان "آل برد جمهور كتابة، ومحور خطابة"[٥].

جعله الحجارى: فوق جده فى النثر وإن ساوى بينهما فى النظم قائلا: "وأما النظم ، فلا أستجيز أن أجعل بينهما أفعل"[٦] وبذلك أصبح أدبه وبخاصة نثره من النصوص العربية البليغة التى أصبحت موضع تقدير واحترام، وعناية واهتمام لدى النقاد قديما وحديثا، فقلما نجد دراسة نثرية، تناولت النثر العربى فى الأندلس خلت من ذكر له ولو يسير، وإشارة إلى نثره ولو عابرة .

---

(١) هو الموفق مجاهد بن عبدالله ملك ميورقة من قبل المنصور بن أبىعامر، ثم استقل بها منذ بداية الفتنة واقتطع دانية فى عصر ملوك الطوائف، دامت ولايته ٣٦سنة (٤٠٠ ـ ٤٣٦هـ) كان محبا لعلوم اللسان والقرآن، مدنيا للعلماء. المغرب لابن سعيد ٢/ ٤٠١ ، الذخيرة ٣/ ١/ ٢٢ وما بعدها .

(٢) هو محمد بن معين بن صمادح التجيبى تولى حكم المرية بعد وفاة والده وهوابن أربع عشرة سنة، وتوفى محاصرا بجيش المرابطين سنة ٤٨٤هـ، كان محبا للأدب، وبلاطه ملتقا لأهله. الحلة السيراء لابن الأبار ٢/ ٧٨ ، المطرب صـ٣٤ .

(٣) الذخيرة ق١/م ١/ ٤٨٦ .

(٤) معجم الأدباء لياقوت الحموى ٢/ ١٠٦ وما بعدها .

(٥) الذخيرة لابن بسام ق١/م ١/ ٤٨٦ .

(٦) المغرب لابن سعيد ١/ ٩١ .

المبحث الأول
فن الرسائل الإخوانية
(المفهوم والقيمة)

أولا: المفهوم:

تعتبر الرسائل بعامة والإخوانية منها بخاصة نوعا أصيلا من أنواع النثر الأدبى قديما وحديثا، وذلك لما تقوم به من دور فعال فى التقارب بين الغائب والحاضر .

وهى "اسم من أرسل، وتراسل القوم: أرسل بعضهم إلى بعض رسولا أو رسالة، وراسله: تابعه، ونثر مرسل: لا يتقيد بسجع، وشعر مرسل: لا يتقيد بقافية، وأرسل الشئ: أطلقه وأهمله"(١) .

والرسالة فى الأصل "هى الكلام الذى أرسل إلى الغير"(٢) فهى "مخاطبة الغائب بلسان القلم، وفائدتها أوسع من أن تحصر من حيث إنها ترجمان الجنان، ونائب الغائب فى قضاء أوطاره، ورباط الوداد مع تباعد البلاد، وطريقة المكاتبة هى طريقة المخاطبة البليغة مع مراعاة أحوال الكاتب والمكتوب إليه"(٣) .

وهى بذلك تأتى متوائمة مع ما اصطلح عليه النقاد فى تحديد مواصفاتها بقولهم "والرسالة هى الحوار مع الغائب كتابة ..، وهى تأليف نثرى نتوجه به إلى شخص غائب لكى نعلمه بأخبارنا أو انطباعاتنا متجاوزين المسافات التى تفصله عنا، وهذه الرسائل تؤلف جانبا هاما فى آداب الشعوب المختلفة.. ومن ثم فإن العناصر التى يجب أن تتوفر فيها هى تلك التى تتطلبها فى المحادثة: العفوية، والطبيعية، والبساطة، والمناسبة، والوضوح، والرقة ،والتهذيب،

---

(١) المعجم الوسيط جـ١ صـ٣٤٤ مجمع اللغة العربية .
(٢) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ٢/ ٥٨٤ .
(٣) جواهر الأدب أحمد الهاشمى ١/ ٤٤ .

وأما خاصية الأسلوب والإيقاع فيها فترتبط بعدة عوامل: بالشخص الذى يكتبها، والموضوع الذى تعرض له ، والشخص الذى توجه إليه، والعلاقة الاجتماعية، أو درجة الود بين المرسل والمرسل إليه، وتبادل الدواعى التى تحملها الرسالة"[1].

ثانيا: القيمة:

حظيت الرسائل الإخوانية باهتمام الأدباء، وكانت ميدانا خصبا لإظهار براعتهم الأدبية، حيث تعددت موضوعاتها، وتجاوزت حدود المرسل والمرسل إليه، فاتخذت مجالا أوسع فى التعبير والرؤى، مما دعا العامة والخاصة الاهتمام بها، لأنها تخلق التواصل، والتعارف، والتحاور، والتوجيه إلى الغائب بلسان القلم.

حيث كانت "تصور جانبا هاما من العلاقات الاجتماعية بين الأدباء؛ إذ لابد من أن يتم السرور بأن يجتمع الأصحاب ذوو الميول المتقاربة والذين تربط فيما بينهم أواصر المودة، وأواصر الأدب .. فهى متعددة بتعدد العلاقات الاجتماعية والشخصية بين الأدباء المترسلين، فقد تكون محتشمة مؤدبة زاخرة بتعابير الاحترام والإجلال إذا كانت العلاقة شبه رسمية، وقد تكون ودية متحررة من التكلف والمجاملات الاجتماعية فحينئذ تكون متصفة بالظرف والمداعبة"[2].

فإلى جانب ما أبدعه كتاب الأندلس فى الجانب الاجتماعى من وصف، ومديح وإطراء، وعتاب ، وغيره، كتب مترسلو الأندلس فى المناظرات الخيالية التى تدور على ألسنة الجمادات لإبراز قيمة اجتماعية أو أخلاقية، مستعينين فى ذلك بالرمز القائم على الخيال

(١) الأدب المقارن أصوله ومناهجه د/ الطاهر مكى صـ٥٢٦ ، ٥٢٧ بتصرف.

(٢) الأدب الأندلسى فى عصر الموحدين د/حكمت الأوسى صـ١٧٩ .

خشية الاصطدام بالواقع والاتجاه المحافظ في الأندلس الذى لا يقبل مناقشة فى هذه المناحى بشكل مباشر .

وهذه الرسائل منها ما يكون ترفيها عن النفس بإبراز الكلام فى صورة خيالية تستهوى القارئ، وتملك مشاعره تطلة لمناقشة قضايا أدبية فى أسلوب سهل قصصى يقصد إلى تحقيق اللذة الفنية كما فى رسالة التوابع والزوابع (لابن شهيد الأندلسى) ومنها ما لم يقصد كاتبها إلى بيان حقائق أدبية ولكن يبغى إظهار مقدرته على التفنن فى إنطاق ما لا يعقل النطق منه كما فى رسائل المناظرات الخيالية (لابن برد الأصغر) ، ومنها ما تناول الموضوعات الفلسفية فى قالب قصصى خيالى جذاب يقصد بها الكاتب إلى تصوير فكرة يريد نشرها بين الناس كما فى (رسالة حى بن يقظان) لابن طفيل[1].

ومن هنا نجد أن كتاب الأندلس قد مالوا إلى استخدام أدواتهم الشعرية وأخيلتهم فى كتاباتهم النثرية نظرا لتحررها من القيود التى تكبل النظم،"ونقلوا إلى النثر محاسن الشعر من الاستعارة والاسترسال والتشبيه، والخيال"[2] هذا مع خلوه من قيد الوزن والقافية، الذى يكبح من جماح الشاعر، ويقيده عن الاسترسال.

وبذلك أخذت الرسائل الإخوانية تزاحم الشعر وتطرق أبوابه وأغراضه، وتمتاز بالصدق الفنى "فجاءت مطبوعة لا تلتزم سجعا، ولا تتكلف توشية، وإنما هى البلاغة تقضى بعض الأحيان بأن

(١) الأدب العربى فى الأندلس د/ عبدالعزيز عيسى صـ٨٦ وما بعدها بتصرف.

(٢) النثر الفنى فى القرن الربع الهجرى د/ زكى مبارك ١/ ١٣٠ ، وتاريخ الأدب العرب فى الأندلس د/إبرهيم أبوالخشب صـ١٣٧ وما بعدها .

يسجعوا ويوشوا دون انتقاص الطبع، ولا ازدراء بالمعنى"[1] ولنا فى رسائل ابن برد الأصغر شاهد على ذلك .

فليس غريبا إذن أن ينهج ابن برد الأصغر هذا المنهج، فيعبر نثرا عن أحاسيسه ومشاعره تجاه من تربطه بهم أواصر ود، أو وشائج قربى.

وهذا ما سنتناوله فى الفصل القادم من رسائله الإخوانية .

(١) الأدب العربى فى الأندلس عصر الانبعاث بطرس البستانى ١٨٦/٣ .

المبحث الثانى
الرسائل الإخوانية (الأنماط)

أولا: النمط الاجتماعى:

يعتبر هذا النمط من أبرز صور النثر الفنى ظهورا، وأكثرها انتشارا، ورسوخ أسس وقوالب، حيث كانت ميدانا خصبا يتنازعه مبدعو الأندلس لاستعراض مقدرتهم الإبداعية فى التعبير عن المعانى التى تمثل طبيعة العلاقات والروابط الاجتماعية، فى شتى صورها العامة والخاصة، والتفاعل معها فى إطار من الصدق الفنى والواقعى. لأنها تظهر "ما استكن فى نفوسهم على أسلات أقلامهم نثرا رقيقا يهتز له القلب، ويهفو لحسنه الفؤاد، وتتوق له الأنفس"(١).

وبالنظر فى نثر (ابن برد الأصغر) نجده واحدا من المبدعين القلائل الذين وجدنا عندهم غراما بتنويع الأساليب الفنية "وولوعا بتجديد الأزياء التى يعرضون ضمنها مضامينهم النثرية"(٢). فى صورة إبداعية مفرداتها الفكر، والعاطفة، والخيال، وحسن السبك.

وتتباين هذه الأنماط فى نثره ما بين وصف مجالس الأنس والاستزارة فى رحاب الطبيعة الغناء، والمدح، والهجاء، والعتاب.

أ ـ نمط "الوصف"

تحتل رسائل الوصف فى النتاج الأدبى الأندلسى مكانة كبيرة نظرا لما حبى الله به البيئة الأندلسية من طبيعة خلابة، وطقس جميل، وفى هذا الجو اندمج أدباء الأندلس بهذه البيئة الطبيعية اندماجا قويا، وارتبطوا بها ارتباطا وثيقا، وجعلوها متكأ لهم فى أفراحهم وأتراحهم متجهين إليها بقلوبهم، يمعنون النظر فيها. يستلهمون وحيها، ويستدرون عطفها، فتمد إليهم يد العون والمساعدة، وتغدق عليهم من منابع الإلهام ما يساعدهم على ترجمة

(١) الأدب العربى فى الأندلس د/ عبدالعزيز عيسى صـ٧٦.
(٢) النثر الأدبى فى القرن الخامس د/ على محمد صـ٥٥٨.

ما يجيش فى صدورهم، ويدور فى خواطرهم من أفراح وأتراح "كل ذلك كان له أثره البين فى افتتانهم فى الوصف وحبهم له، وإكثارهم منه"(١).

وبالنظر فى نثر ابن برد الأصغر نجده اتخذ من الطبيعة صديقا وفيا وعقد معها مشاركة وجدانية وبخاصة فى رسائل الاستزارة. واللقاء فى رحابها الفاتن تارة، ومناخها المتقلب تارة أخرى.

ومن ذلك تلك الدعوة التى بعث بها لصديق له لم يسمه، حيث يحثه فيها على المجئ، مصورا بعدسته الفنية مكان اللقاء من يوم هطلت أمطاره، وضحكت أزهاره، وتقنعت شمسه، وفاح عبير نسيمه، فيقول: "اليوم يوم بكت أمطاره، وضحكت أزهاره، وتقنعت شمسه، وتعطر نسيمه" فالكاتب يتأنق فى رسم صورة الطبيعة الأندلسية لتتناسب مع ميوله، معبرا بذلك عن خلجات نفسه، وهواتف حسه مسرعا إلى روض نضير تفتحت أزهاره ، وفاح عبيره، مع مجموعة من الرفاق ليشاهدوا هذا الجمال، وليجرى مع الطبيعة حوارا، مما يعطى دلالة على طبيعة الحياة الاجتماعية فى الترابط والمشاركة فى لذات الحياة ومتعها .

ثم يحلق بنا فى عوالم هذا المجلس فيتحدث عن مفرداته التى وفرت له وسائل المتعة والرفاهية "عندنا بلبل هزج (٢)، وساق غنج(٣)، وسلافتان: سلافة إخوان، وسلافة دنان، قد تشاكلتها فى الطباع، وازدوجتا فى إثارة السرور" خاتما دعوته بتحفيز صاحبه

(١) الأدب العربى فى الأندلس عبدالعزيز محمد عيسى صـ٨١ .
(٢) هزج:الهزج محركة صوت مطرب.القاموس المحيط:٢٦٩(هزج).
(٣) الغنج:الشكل وهو ملاحة العينين – القاموس المحيط:٢٥٦(غنج).

بصيغة الاستدعاء "فاخرق إلينا سرادق الدجن تجد مرآى لم يحسن إلا لك، ولا يتم إلا بك"(١).

ثم يبين له وقت الزيارة فى مثل هذا الموقف ـ والتى امتزجت فيه الطبيعة بوسائل اللهو والترف ـ فى صورة بديعة رائعة لليل حيث يكون أحفى وأخفى بالزائر والمزور معا، بعيدا عن أعين الرقباء، وألسنة الوشاة، وبخاصة إذا أسدل هذا الليل ظلامه، وحجبت نجومه بغيومه، وكواكبه بسحائبه: "للزيارة فى الليل أخفى، وبالزائر والمزور أحفى وقد سدل حجابه، ووقع غرابه، وتبرقعت نجومه بغيومه، وتلفعت كواكبه بسحائبه، فاهتك إلينا ستره، وخض نحونا بحره، ولك الأمان من عين واش تراك، وشخص رقيب يلقاك"(٢).

فهذه صورة من صور استدعاء الأصدقاء والندماء إلى مجلس أنس فى الأندلس ذات الطبيعة الجذابة، والأرض المضيافة، وظف الكاتب فيها الخيال توظيفا رائعا، فبدت حية متحركة دافئة، ومشاركة له مشاعره وأحاسيسه.

وإذا كان أصحاب هذا اللون من المتعة قد اتخذوا من الطبيعة الساحرة متكأ لهم فى أفراحهم، ومسرحا يحتضن لقاءاتهم، ووسيلة إشباع لأحاسيسهم ومشاعرهم، فإنهم استبدلوها فى بعض الأوقات بالقصور، خوفا من ثورتها وتمردها عليهم، وحرصا منهم على إقامة مجالسهم بعيدا عن أعين الرقباء، ومن ذلك قول ابن برد يصف مجلسا شتائيا دفعهم إليه ثورة الطبيعة بوجهها المكفهر، وثلجها المتساقط متدرعين فى ذلك بالستور ، وعقد مجالس السرور، وسط مشاعل التدفئة وألسنة اللهب ذات الرايات الحمراء، وكئوس الكروم الشقراء، وبذلك بددوا جيش الشتاء، وأكظموا غيظ برده،وسط رغبة

(١) الذخيرة ق١ م١ صـ٥٠٢ .
(٢) الذخيرة لابن بسام ق١ م١ صـ٥٠٢ .

عارمة فى عقد هذا اللقاء متكأ فى تصويره على التشخيص والتجسيم تحن من منزل أبى فلان بحيث نلتمس سناك، ونتنسم ريـاك، وقـد راعنا اليوم باكفهرار وجهه، وما ذر من كافور ثلجة، فادرعنـا لـه بالستور، وانغمسنا بين جيوب السرور، ورفعنا لبنات الزناد رايـات حمراء، وأجرينا لبنات الكروم خيلا شقراء، وأحببنا أن تشهد جـيش الشتاء كيف يهزم، وأنفاس البرد كيف تكظم"(١).

وإذا كانت هذه المجالس تعبر عن جانب من جوانـب الـنفس البشرية الأندلسية التى "جبلت على طبيعة لا تكتمـل فيهـا سـعادة الإنسان إلا إذا امتدت ظلالها الوارفة إلى كل من يحبه قلبه"(٢).

فإن الدعوة إلى مثل هذه المجالس لم تكن هى السـائدة، بـل امتدت لتشمل مجالس أخرى قائمة على العلم الذى يشـحذ الـذهن، ويصقل الفكر، ويؤنس الخاطر، ويفرج الهم، وهى بذلك تحقق متعـة مغايرة لما سبق، فيقول(ابن برد) مازجا بـين صـيغة الاسـتدعاء وعناصر المتعة لهذا اللقاء متكئا فى ذلك على عنصر المقابلة بـين المتعة الحسية والمعنوية: "فإنى رأيت أن تخف إلى مجلس قد نسخت فيه الرياحين بالدواوين، والمجامر بالمحابر، والأطبـاق بـالأوراق، وتنازع المدام بتنازع الكلام، واستماع الأوتـار باسـتماع الأخبـار، وسجع البلابل بسجع الرسائل، كان أشحذ لذهنك، وأصـقل لفكـرك، وآنس لخاطرك وأطيب لنفسك، وأفرج لهمك، وأرشد لرأيك"(٣).

---

(١) الذخيرة ق١ م١/ ٥٠٣، اكفهرار: اكفهرر الـنجم: بـدا وجهـه وضوءه فى شدة الظلمة- القاموس المحيط:٦٠٦(كفهر). ادرعنـا: المدرعة: ثوب من صوف، وتمدرع: لبسه - القـاموس المحـيط: ٩٢٣ (درع)، الزناد: الزند: هو العود الذى يقدح به النار. تكظم : من كظم غيظه يكظم: رده وحبسه - القـاموس المحـيط: ١٤٩٠ (كظم).

(٢) النثر الأدبى الأندلسى صـ٣٤١ .

(٣) الذخيرة ق١ م١/ ٥٠٣ .

وقد جاءت مفرداته فى هذه الرسالة تخاطب مناطق حس مختلفة ومغايرة لما سبق، حيث تبدل فى هذا المجلس من المتعة الحسية إلى المتعة الروحية العقلية، التى تخاطب العقل وتنمى الفكر، متخذا من الازدواج والسجع فى مفرداته وسيلة لذلك، دون أن يؤثر على ما يريد تصويره من معان، أو يسوقه من أفكار .

وهكذا فقد تميزت رسائل الوصف بالصدق فى رسم الصور الأدبية نظرا لما تتمتع به الطبيعة الأندلسية من جمال رائع أسهم بقدر عال من الخيال العذب، ومفردات الجمال لدى(ابن برد الأصغر) الذى لا يكاد ينفك فى رسائله عن مفردات الطبيعة حتى فى وصف المجالس العلمية التى تعتمد على الفكر والعقل بعيدا عن الوجدان، مستخدما براعته فى رسم الصور، وتشكيل عناصر الخيال المتنوعة.

ب- نمط "المدح"

تطرقت الرسائل الاجتماعية النثرية إلى مواضع شعرية كانت وقفا على الشعراء دون الكتاب وهى رسائل المديح، لدرجة أن الإغراق فى هذه الرسائل أصبح من مميزات النثر فى القرن الخامس الهجرى، إذ الغاية من المديح "إبراز مناقب ، وفضائل الممدوح الإنسانية، وأصل الفضائل أربعة: العقل، والشجاعة، والعدل، والعفة، ولذا كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع خصال مصيبا، والمادح بغيرها مخطئا، وتختلف فى المدح باختلاف مقامات الممدوحين"(١).

وإذا كان قدامة بن جعفر قد جعل الفضائل النفسية هى المعتمدة، واعتبر مدح الرجال بها مصيبا وبغيرها مخطئا، فإن (ابن برد) جمع فى مدحه بين رأيه،ورأى ابن رشيق "الذى يضيف إليها فضائل أخرى عرضية أو جسمية(٢)،فجاءت مدائحه تبعا لذلك جامعة للحسنيين ، وكان يتفنن فى إضفاء كثير من هذه الفضائل على ممدوحه.

وأول ما يطالعنا من هذه الرسائل المدحية مدحه لابن معن الصمادحى الذى اتخذ منه وسيلة للتقرب إليه ،واستدرار عطفه عليه، فقد وصل به سببه بعد أن أصابته الفتنة الأندلسية بأسبابها المبيرة، ورآه للحلم جبلا، وللديانة ظلا ممدودا، وللعلم بحرا زاخرا، حيث قربه من مجالس أنسه، وأنزله منزلة أثيرة فى نفسه وديوان ملكه، آخذا من ماله ومن أدبه، و(ابن برد) فى هذا ينقل من واقع حياته، ومن تجربته الشخصية مع الممدوح ، فى نثر صادق نابض بالحياة فيقول: "حتى إذا أراد الله أن يحيى لهذه الصناعة رسما، ويعيد لها دولة واسما، ... رفعت لى سجوف الأمانى عن الملك اليمانى،...

---

(١) نقد الشعر قدامة بن جعفر صـ٩٦ ت.د/ محمد عبدالمنعم خفاجى ط دار الكتب العلمية بيروت .

(٢) العمدة لابن رشيق ٢/ ١٣٥ .

فوصلت به سببى، ولويت بقوى أطنابه طنبى، ورأيت للحلم به جبلا موطودا، وللديانة ظلا ممدودا، وللتقوى حبلا مشدودا .. ولم يزل ــ لا زلت به النعل ــ منذ اعتصمت بحرمته، واعتزيت إلى خدمته، يقبل على فى مجالسه المأنوسة باللحظ واللفظ ... فلا ترى شيئا أشبه به فى التفضل، وبى فى التقبل[1] من قول حبيب:

نرمــى بأشــباحنا إلى ملــكٍ ∴ نأخــذ مــن مالــه ومــن أدبــه"[2]

فابن برد فى مدحه لهذا الأمير جاء مواكبا لحاجته، وتفريج كربته بعد أن تقلبت أحوال البلاد بفعل الفتنة المبيرة وخراب قرطبة على أيدى البربر والصقالبة، مؤكدا هذه المعانى بألفاظ تعبر عن انفراج هذه الكربات على أيدى هذا الأمير فى قوله: "رفعت لى سجوف الأمانى، وصلت به سببى، ولويت بقوىأ طنابه طنبى ،ورأيت للحلم به جبلا، وللديانة ظلا ممدودا ، وللتقوى حبلا مشدودا. اعتصمت بحرمته، واعتزيت إلى خدمته، يقبل على فى مجالسه" وإذا كان الكاتب عبر عن تفريج كربه، وتفيئه فى ظلال أميره، إلا أنه بالغ فى وصف بعض فضائل هذا الأمير، إذ جعله إلى جانب ما سبق محييا لصناعة الأدب، ومقيلا لعثرة العلم، ومديلا لدولة الجهل.

وكان لمدحه هذا تبعا لذلك وقع حسن، إذ نجح فى إثارة المتلقى، حيث أراد أن يبلغ الحد فى الوصف، فنعت صاحبه بصفات فيها كثير من الغلو تمشيا مع مذهب القدامى حين جعلوا المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط بما فيه كفاية[3].

---

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٤٨٩. ٤٩٠. الطنب بالضم: حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد، والجمع أطناب وطنبة – القاموس المحيط: ١٤٠(طنب). السجف: الستر، والجمع: أسجاف وسجوف – القاموس المحيط: ١٠٥٧٠سجف).

(٢) ديوان أبى تمام ١/ ٢٧٦ .

(٣) نقد الشعر لقدامى بن جعفر صـ١٠٠ .

وهذا النوع من المدح المائل إلى المبالغة فى رسم صفات الممدوح هو من باب إشاعة الفضائل حتى تقتدى به الرعية، لأن الكاتب هو الوسيلة الإعلامية المعبرة عن الصورة المثلى التى يجب أن تكون بين الحاكم والرعية.

وكما رأينا نجد أن (ابن برد) كان مغرما أيما غرام بممدوحه كثير التعلق به، ولم لا ! وهو الذى أرجع الأمن والسكينة إلى ربوعه.

وقد يعمد الكاتب إلى المدح لإبراز الصفات المعنوية التى تكون زخرا بين الأصدقاء، ودليلا على المحبة والإخلاص والوفاء، مؤكدا على الصفات الجليلة التى تكون بينهم، ومرغبا فيها، و(ابن برد) فى هذا الأمر يحشد كل طاقاته النفسية والفنية، فيعيش فى قلب التجربة، وينفعل بها، لتأتى متينة السبك حافلة بالصدق، الذى يسبغ على رسائله الرواء الناشئ عن جمال التصوير والتعبير، إذ يقول فى مدح الصديق الذى تصدق مودته وتصفو، فى عبارات مقتضبة وجمل قصيرة، صاغها بروعة فائقة فى الخيال، ودقة متناهية فى التصوير: "بيننا خصائص ودادة، كأنها وشائج ولادة ، رعيت به السعدان، وأخذت من ريب دهرى به الأمان ، جلى من مطلبى ما أظلم على، وأشعل من همتى ما خمد لدى ، ناصرى إذا تكاثرت الخطوب على ، ومجيرى إذا أثخنت الأيام جانبى ،هو ذخرى المعد، وركنى الأشد، وسلاحى الأحد ، خزانة سر لا إقليد لها ،ولا للصوص حيلة فيها"[1].

فهو يخاطب المتلقى واصفا ومخبرا عما بينه وبين هذا الصديق من وشائج الصداقة والود، ثم ينتقل إلى تأكيد عرى هذه الصداقة التى تتوثق على مر الزمان بذكر الصفات والفضائل النفسية القائمة على الرعاية، والأمان وجلاء ما أظلم عليه، وإشعال ما خمد من همة لديه، ونصرة وقت

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٥٠٣ ــ ٥٠٤ .الإقليد:المفتاح- القاموس المحيط:٣٩٨(قلد).

الشدة، وذلك من خلال التضاد والمقابلة حتى تبرز الحسنة والميزة من هذه الصداقة ، ثم يبرز القيمة المثالية العليا للصداقة من خلال أسلوب التفضيل فى قوله: "هو ذخرى للمعد، وركنى الأشد، وسلاحى الأحد".

ومن خلال هذا الخيال الخصب الذى يملكه الكاتب استطاع أن يقترب باللغة من روحها البدائية الأولى، لأن اللغة كلما قربت من وضعها البدائى كانت تصويرية[1].

فلم يترك فى هذه العبارات والفصول المقتضبة فضيلة من الفضائل النفسية إلا وألصقها بممدوحه، فهو خزانة سر لا حيلة للصوص فى الوصول إليها، وصاحب رأى سديد، يضحى بالمال والنفس من أجل الصداقة ، وبذلك يكون فى رأى قدامة بالغ فى التجويد إلى أقصى حدود[2].

وبهذا يكون المدح من الأنماط التى كانت أكثر فاعلية فى النثر فيها عن الشعر من حيث التنويع والتجويد واستغلال الطاقات التى يمكن من خلالها رسم صورة مثلى للممدوح، وقد أجاد (ابن برد) فى ذلك.

(١) الصورة فى الشعر العربى على البطل صـ٢٦ .
(٢) نقد الشعر صـ٩٦ .

جـ- "نمط الهجاء"

الهجاء هو "تصوير لعاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء، وسواء فى ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق أو المذاهب"(١).

وهو - كما يرى بعض النقاد - نقيض المدح على نحو ما نجد عند قدامة(٢)، وأبلغه ما كان "بسلب الصفات المستحسنة التى تخص النفس من الحلم والعقل وما يجرى مجرى ذلك، وليس الهجاء بقبح الوجه، وضآلة الجسم، وقصر القامة، وما فى معنى ذلك بليغا مرضيا"(٣).

أى أن أفصل الهجاء ما كان يزرى بأخلاق المهجو لا بخلقته ، ومن ذلك ما جاء فى رسالة (لابن برد الأصغر) يرصد فيها الوجه المظلم لصداقة لا يرعى لها حرمة، ولا يحفظ لها جانب، فيقول: "خليت عنه يدى، وخلّدت قلاه خَلَدى ، منزور النوال، رث الفعال، أحاديث وعده لا تعود بنفع، ولا هى من غرب ولا نبع ، على وجهه من التعبيس قفل ضاع مفتاحه، وليل مات صباحه ، غنى من الجهل،مفلس من العقل، تتضاءل النعم لديه، وتقبح محاسن الإحسان عليه ، شر بقعة لغرس المودة وبذر الإخاء ، قصير الوفاء للإخوان، عون عليهم مع الزمان، هو كدر الدنيا وسقم الحياة"(٤).

---

(١) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية د/ محمد حسين صـ١٢ .
(٢) نقد الشعر صـ٣٥ .
(٣) ديوان المعانى أبى هلال العسكرى ١/ ٢٠٢ .
(٤) الذخيرة ق١ م١/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥ .قلاه:قلى وقلاء :أبغضه- القاموس المحيط:١٠٧٩(قلا) .كدر:محركة هى من الحوض:طينه، أوماعلاه من طحلب - القاموس المحيط:٦٠٣(كدر).سقم:السقم :المرض-القاموس المحيط:١٤٤٧(سقم).

فـ(ابن برد) فى هذه العبارات، وتلك الجمل سلب غريمه كل محمدة فى سخرية لاذعة قائمة على الخيال، ودقة الوصف، مع براعة التجسيد والتجسيم، وكشف للقناع الزائف، وفى هذا سخرية مريرة أشد وقعا على النفس.

ولذلك نفض يده من هذه الصداقة، وبين وجهها المظلم القائم على النزر فى النوال، وبغض الفعال، وإخلاف الوعود.

ثم يرسم لصاحبه الخائن لهذه الصداقة صورة استخفافية هزلية تصل إلى فكر وعقل المتلقى من أقرب طريق، حيث العبوس المظلم الذى لا ينفك عن هذا الوجه لضياع مفتاحه، فأصبح موسوما من كدر الدنيا، وسقم الحياة.

وبذلك استطاع(ابن برد) بمقدرته على استخدام الألفاظ وتطويعها للتعبير عن معانى السلب، لإبراز مثالب خصمه وحمقه وجهله وسواد قلبه، فظهرت الحقيقة جلية، فى صورة غلفت بسياج خيالى معبر عماده التشبيه، والكناية، وربط بين السبب والنتيجة. وبذلك كان الكاتب موفقا فيما عبر عنه من معان وأفكار، مما جعلنا نشاركه مشاعره وأحاسيسه تجاه هذا الصديق الذى خان كل عهود المودة والإخاء.

و(ابن برد) فى هذه الصياغة يعبر عن فلسفته الخاصة بالمودة وتبدل صورها، وتداعياتها بأسلوب يقترن من مدارات الحكمة تارة. والمثل السائر تارة أخرى.

د ـ نمط "العتاب"

يعد العتاب دواء ناجعا لما يحدث فى رباط المودة والإخاء من وهن وعلل قد تودى به إلى الانقطاع، وقديما قالوا: "العتاب حياة المودة"(١).

ولذلك فهو يعتبر فنا وسطا بين المدح والهجاء وكثيرا ما ينشأ عن الحب والغضب، ولكنه قد يشتد ويعنف حتى يصبح هجاء(٢).

إلا أنه مهما بلغت حدته وتباينت أنماطه ـ رقة وقسوة ـ يهدف إلى مداواة النفوس من النكران والجحود، فمعظم رسائله "تبدأ بطرح أسباب الملامة بمقدمة يعرف فيها المعاتب صديقه بحق المودة، والإخاء ومن ثم يضع مودته لصديقه فى مكانها اللائق بها"(٣).

وقديما قال الشاعر:

إذا ذهبَ العتابُ فليس ودُ ∴ ويبقى الودُ ما بقى العتاب(٤)

وبالنظر فى نثر (ابن برد الأصغر) نعثر له على رسالة رائعة فى العتاب يرد فيها على عتاب صديق له ـ لم يسمه ـ يبدؤها برصد علامات التحول السريع الذى ظهر على سلوكه، وراح يرصد فيها ما طرأ على علاقتهما من التنكر والتفريط والتقصير؛ فيقول: "أظلم لى جو صفائك، وتوعرت على أرض إخائك، وأراك جلد الضمير على العتاب، غير ناقع الغلة من الجفاء، فليت شعرى ما الذى أقسى مهجة ذلك الود، وأذوى زهرة ذلك العهد؟ عهدى بك وصلتنا تفرق

---

(١) أمراء البيان محمد كرد على صـ١٨٠ ط دار الأمانة ، بيروت ط:ثالثة ١٩٩٩م.

(٢) فى نظرية الأدب (من قضايا الشعر والنثر فى النقد العربى القديم) عثمان موافى جـ١/ ٦٩ .

(٣) فن المقامة والرسالة الأدبية فى الأندلسى د/عبدالرحمن الخانجى صـ٢٣٨ .

(٤) لسان العرب مادة "عتب" وهو بيت لشاعر مجهول.

من اسم القطيعة، ومودتنا تسمو عن صفة العتاب ونسبة الجفاء؛ واليوم هى أنس بذلك من الرضيع بالثدى والخليع بالكأس"[1].

فى هذه الرسالة تتجلى مقدرة(ابن برد الأصغر) فى رسم صورة للقطيعة بينه وبين صديقه وما نتج عنها فى تصوير رائع قائم على التشخيص والتجسيم ،حيث أظلم جو الصفاء، وغلظت أرض الإخاء، والعطش الشديد إلى الجفاء، ثم يتساءل متعجبا ما الذى غير الود بينهما لدرجة القسوة، وأذبل زهرة العهد بينهما، بعد أن كانت نفساهما تفرق من الفرقة والقطيعة ، ومودتهما ترتفع فوق العتاب والجفاء الذى أصبح ملازما له ملازمة الرضيع إلى ثدى أمه، والخليع إلى كأسه لا ينفك عنه .

وقد تميز أسلوبه بالسهولة واليسر فى الألفاظ وتأثيرها المباشر على المتلقى ، حيث جاءت فى أغلبها مطابقة لمعانيها ومعبرة عما يجول فى خاطره، من التبدل والتحول والتنكر الذى طرأ على سلوك هذا الصديق.

ثم ينتقل إلى رصد المعاناة النفسية التى انتابته جراء ما اعترى هذه العلاقة من تبدل وتنكر فى أداء واجباتها ،مما جعله يزهد فى الكتابة إليه، ومجاهدة أدواتها متكئا فى ذلك على الخيال الذى كان له دور كبير فى تشكيلها حيث رغم أنف القلم، وتقلصت أحشاء القرطاس، وامتنع فم الفكر عن الكلام، فذهب ما بينهما من إسعاد عند المكاتبة وبشاشة عند المخاطبة فيقول: "لا أستبد ــ أعزك الله ــ من الكتاب إليك وإن رغم أنف القلم، وانزوت أحشاء القرطاس.

---

(١) الذخيرة ق١ م١/ ٥٠١.الوعر: ضد السهل، وتوعر: صار وعرا- القاموس المحيط:٦٣٤(وعر)،الغلة:بالضم العطش أو شدته،والغليل: الحقد –القاموس المحيط:١٣٤٣(غلل)، المهجة : الدم ، أو دم القلب والروح- القاموس المحيط:٢٦٣(مهج) ، الخليع: قدح لا يفوز، والمقامر المراهن،والثوب الخلق – القاموس المحيط:٩٢٢(خلع).

وأخرس فم الفكر، فلم يبق إسعاد لى على مكاتبتك، ولا بشاشة عند محاولة مخاطبتك، لقوارص عتابك، وقوارع ملامك ..." (١).

بعد هذا العرض لمراحل الفجوة والجفوة التى وقعت بينه وبين صديقه تتبدل نبرة الخطاب، وتأخذ إيقاعا مغايرا قائما على وضع حد حاسم لهذه العلاقة، التى تأخذ اتجاهات ثلاثة:

إما الإقدام على تبديد سحب الجفاء بحجة مقبولة، أو حقيقة تعيد وصل ما انقطع من أسباب المحبة والود، أو ثبوت على موقف التقصير والتنكر فى العلاقة، فيقول: "وأنا الآن على طرف من إخائك معك، فإما أن تدلى بحجة فأتصل عندك، وإما أن تنبئ بحقيقة أستديم خلتك، وإما أن تأزم على فأسك فأقطع حبلى منك"(٢).

وفى النهاية يصل إلى رأى صائب ، ونظر ثاقب فى الوصول بهذه العلاقة إلى نمطين من أنماط العتاب : أولهما: نمط محبب إلى النفس يحفظ للمودة حقها، ويسبر غورها، وتستثار به دفائن المحبة والمودة والأخوة الدفينة فى النفس، كى تتحقق المكاشفة، فتجلو سحابة الصيف المعبرة عن الصداقة العميقة الجذور، وذلك إذا صدقت دوافعه، ورقت صور التعبير عنه، فيقول: "كثيرا ما يكون عتاب المتصافين حيلة تسبر المودة بها ، وتستثار دفائن الأخوة عنها، كما يعرض الذهب على اللهو، وتصفق المدام بالفدام، وقد يخلص الود على العتب خلاص الذهب على السبك"(٣).

---

(١) الذخيرة ق١ م١/ ٥٠١ القوارص من الكلام: التى تتغصك وتؤلمك – القاموس المحيط:٨٠٨(قرص)، قوارع فلان: قوارض لسانه – القاموس المحيط:٩٦٩(قرع).

(٢) الذخيرة ق١ م١/ ٥٠٢ ، تتصل : خرج وتبرأ – القاموس المحيط:١٣٧٣(نصل)، تأزم: الأزم القطع بالناب وبالسكين، والإمساك، والصمت – القاموس المحيط:١٣٩٠(أزم).

(٣) الذخيرة ق١ م١ / ٥٠٢ ، الفدام: جمع فدم: الأحمر المشبع حمرة – القاموس المحيط:١٤٧٧(فدم).

فهو يعبر عن الدور المتنامى للعتاب فى المكاشفة، لصقل النفوس وصفائها بعد جلاء تلك الغمة ـ القطيعة ـ التى تعكر صفوها .

وأما ثانيهما: فتفرق منه النفس ، وتبتعد عنه، ويصيبها الوهن، وذلك إذا كثر العتاب ودام، فيعبر عنه من خلال التشبيه الرائع الذى يجعل الصورة ماثلة وآكدة فى ذهن المتلقى فيقول: "فأما إذا أعيد وأبدى، وردد وولى، فإنه يفسد الإخاء كما يفسد الزرع توالى الماء"(١) .

فقد جعل الإخاء زرعا يفسده كثرة العتاب ، كما يفسد الزرع توالى الماء بسبب وبدون سبب، وهذا تصوير فى غاية الدقة والبراعة أتى فيه ابن برد على الصورة من كل جوانبها .

وهكذا كان العتاب بين (ابن برد)وصديقه الذى تنكر للود القديم، قد جاء كما رأينا ملاما رصينا لم يخرج عن حدود اللياقة ولكنه كان واضح التعبير عن كرامته، وفى ملامح شخصيته المحترمة، ونبرات ذاته النبيلة التى ترفض التدنى والسقوط .

وبذلك ظهرت شخصية (ابن برد) فى هذا النمط من رسائله الإخوانية كما ظهرت شخصية غيره من كتاب عصره فى هذا النوع من الرسائل، ولا غرو فى ذلك فهذا النوع من الرسائل أقدر على نقل أحاسيس الكاتب، والإفصاح عن قسماته النفسية، والكشف عن مكنونات نفسه، ولواعج قلبه، ذلك لأن الكاتب فى رسائله الإخوانية "يطلق العنان للأقلام، ويتجافى عن الكلفة، ويعدل عن الانقباض، وقد قيل: إن الأنس يذهب المهابة، والانقباض يضيع المودة"(٢) .

---

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٥٠٢ .

(٢) جواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء لغة العرب، السيد أحمد الهاشمى ٤٥/١ ط دار إحياء التراث العربى بيروت .

ثانيا: "النمط الخيالى"

ويقوم هذا النمط على المناظرات الخياليـة[1] القائمـة علـى المجادلة والمفاخرة وقد بدأ هذا اللون قديما فى الجاهلية يتسم باليسر فى القول، والبساطة فى التكوين، وانتهى جنسا أدبيا له سماته وأطره الفنية على يد الجاحظ . ثم عرف طريقه تجاه الأندلس من خلال النماذج المشرقية الوافدة إليهم، فكثرت نماذجه، وزاع صيته وتوسعوا فيه، لدرجة أنهم لجأوا إليه فى كثير من مناسباتهم الاجتماعية[2].

وبذلك أصبح يمثل طفرة نوعية فى مسار النثر الأدبى الأندلسى، وصار سمة بارزة من سمات نضجه.

وبالنظر فى نثر(ابن برد الأصغر) نجد له رسالتان تنتميان إلى هذا النوع من النثر الخيالى القائم على المناظرة، والمفاخرة ، والمحاجة.

أولاهما: أدار حوارها بين السيف والقلم، **والثانية:** بين مجموعة من الزهور[3].

---

(١) غلب استعمال هذا المصطلح فى "الموضوعات الفكرية التى تثير خلافات أدبية وفلسفية حيث يقوم كل من المتحاورين بالدفاع عن رأيه أو معتقده؛ وهدم الآخر ودحض حججه" انظر المناظرة فى الأدب العربى الإسلامى د/ حسين صديق صـ١٩٦ .

(٢) النثر الأدبى الأندلسى صـ٤٢ بتصرف.

(٣) هذا اللون من الرسائل له أصول مشرقية حيث يرجع الفضل فى ابتكاره إلى ابن الرومى الذى عالجه فى كثير من أشعاره، وقد انتصر فيها للنرجس على بقية الزهور مما حدا بقلة من شعراء الأندلس بمعارضته، وقد تسرب هذا اللون من الرسائل إلى النثر، وأصبح ابن برد من فرسان حلبتها فكتب رسالته فى المفاخرة بين الأزهار إلى أبىالوليد بن جهور (ت٤٢٦هـ) مفضلا للورد على بقية الزهور، وقد صاغها فى قالب قصصى رمزى دون إعطاء إشارة واضحة إلى مغزى كتابتها، وإن كانت تنحو إلى التكسب

وسنكتفى بالتعليق النقدى على الرسالة الأولى "السيف والقلم" نظرا لأهميتها، وفائدتها الأدبية، ومن خلالها نعطى إن شاء الله صورة فريدة لهذا النمط فى نثره.

المناظرة بين السيف والقلم:

تعد هذه الرسالة أهم رسائل (ابن برد الأصغر) وأكثرها ذيوعا وانتشارا ، حيث وصفت بأنها "من بدائعه العقم المستنزلة للعصم"[1] ، وذلك لأهمية موضوعها وجدته من جهة ، ولأنها من جهة أخرى تعكس شخصيته الحقيقية فى الكتابة، وتمثل طريقته، وتبرز عناصر صنعته[2].

و(ابن برد)يعد أول من كتب هذا النمط النثرى فى الأندلس "وهو أول من قال بالفرق بينهما"[3] حيث استطاع ببراعته الفنية الفائقة نقل هذه الظاهرة الخيالية من المنحى الشعرى قديما، والذى كان مشهورا على ألسنة الشعراء مثل ابن الرومى (ت٢٨٤هـ) قديما، وأحمد شوقى ت(١٩٣٢هـ) حديثا[4]، إلى المنحى النثرى وذلك من خلال رسالة بعث بها إلى أميره مجاهد العامرى، فى أسلوب مدحى قائم على الجدة والابتكار، يرصد فيها جانبا من جوانب الصراع الخفى بين المنتمين لدولتى السيف والقلم فى الأندلس فى

وطلب العطاء، متخذا من الورد رمزا لأميره، وتفرده بين الأمراء . انظرتاريخ الأدب الأندلسى عصر سيادة قرطبة د/إحسان عباس صـ١١٠ - أدب الرسائل فى الأندلس صـ٢٠٥.

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٣ - العصم : بقية كل شىء- القاموس المحيط:١٤٦٩(عصم) .

(٢) الرسالة الأدبية فى النثر الأندلسى د/ فوزى عيسى صـ١١٧ .

(٣) مطمح الأنفس لابن خاقان صـ٢٨ .

(٤) خصائص الأسلوب فى الشوقيات محمد الهادى الطرابلسى صـ١١٧ .

ذلك الوقت، متمنيا أن تجاب رغبته فى المساواة بينهما، باعتبارهما رمزين للقوة المادية والمعنوية التىلا يستغنى بأحدهما عن الآخر .

"ورسالة السيف والقلم (لابن برد) فى مضمونها مناظرة فكرية جدلية بين السيف والقلم فى أحقية كل منهما بالسيادة والزعامة،وهى فى حقيقتها مناظرة بين المحارب، والكاتب .. ولا نستغرب أن تكون بين دعامتى الدولة"(١).

وقد عمد ابن برد "فى هذا النمط إلى أسلوب المناطقة فى توليد الحجج والبراهين على لسان كل خصم، كما يلجأ تارة أخرى إلى التهاجى والتبكيت، أو إلى الفخر والاستعلاء على الطرف الآخر"(٢).

وقد مهد (ابن برد) لمناظرته الخيالية بين "السيف والقلم" بالاعتراف بفضل كل منهما وتساويهما فى علو المكانة، وأهمية المنزلة، وذلك من خلال تقرير قاعدة إنسانية تتمثل فى التفاوت النسبى بينهما وإن تشابها فى طبيعة النشأة وعوامل التأثير .

فقد تنبت زهرتان فى مكان واحد، ومع ذلك ترى أحدهما أجمل منظرا، وأبهى لونا،فيقول: "وربما امتد أحد الجوادين بخطوة، أو خص أحد القضيبين بربوة، أو كان أحد السهمين أنفذ مصيرا، أو راح أحد النجمين أضوأ تنويرا، أو غدت إحدى الزهرتين أندى غضارة، أو أمست إحدى البارقتين أسنى إنارة، فالمقصر يرتقب تقدما، وتقارب الحالتين فى المجانسة، يشب نار المنافسة"(٣).

ولذلك كان التحاسد بينهما مذموما، ولكنه نشأ من محاولة كل منهما العلو على الآخر، والاستحواذ على المكانة وحده دون غيرد، وتلك إشارات رمزية لها دلالتها . ولذا أكثر (ابن برد) من صيغ

(١) فن المقامة والرسالة الأدبية فى الأندلس عبدالرحمن الخانجى صـ٢٩٦ .
(٢) نفسه صـ٢٩٧ .
(٣) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٣ .

المفاضلة بينهما، مثل قوله: "أنفذ مصيرا، أضوأ تنويرا، أندى غضارة، أسنى إنارة" وهذه الصيغ التفضيلية اقتضتها طبيعة الموضوع، فهو موضوع مناظرة ومفاخرة.

ثم يتبع ذلك بذكر قيمة كل منهما، وبيان العلاقة القوية التى تجمع بينهما باعتبارهما وجهان لعملة واحدة، وطريق الباحث عن المجد والشرف والمقام الرفيع، فقد "كانا مصباحين يهديان إلى القصد من بات يسرى إلى المجد، وسلمين يلحقان بالكواكب، من ارتقى لساميات المراتب، وطريقين يشرعان نهج الشرف لمن تقرى إليه، ويجمعان شمل الفخر لمن تأشب عليه، ووسيلتين يرشفان العلا فم عاشقها، ويبسطان فى وصال المنى يد وامقها، وشفيعين لا يؤخر تشفيعهما، ومجمعين لا يفرق تجميعهما"(١).

وكانت وسيلته فى التعبير عن تلك العلاقة القوية، والالتحام والاتساق بينهما، تحقيق المماثلة بين الجمل طولا وقصرا، وعطفا وتركيبا، والاتكاء على عناصر الشعر المختلفة إيقاعا وتصويرا، مثل قوله:

وسيلتين	يرشفان العلى	فم عاشقها
وشفيعين	لا يؤخر	تشفيعهما
ومجمعين	لا يفرق	تجميعهما

مما يحقق خلق تموجات صوتية كثيفة تتماشى مع الفكرة التى أرادها الكاتب.

ويبدو أن هذه العلاقة الوثيقة لم تحل دون تطلع كل طرف إلى الانفراد بالأمر دون غيره، فيدب بينهما خلاف واسع الشقة لايمكن السيطرة عليه بيسر وسهولة،فيقول (ابن برد)معبرا عن ذلك بأسلوب

---

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٣، تأشب وتأشبوا: اختلطوا واجتمعوا – القاموس المحيط :٧٥(أشب) ، وامقها: ومقه ومقا: أحبه، فهو وامق . وتومق: تودد – القاموس المحيط:١٢٠٠(ومق) .

تصويرى قائم على التشخيص، حيث يمنح الجامد صفات الحى، ويضفى على المعنوى صفات المحسوس،فيقول: "وحين كشف الجدال قناعه، ومد الخصام ذراعه، وهز الإباء من عطفه، وأشم الأنف من أنفه، قاما يتباريان فى المقال، ويتساجلان فى الخصال، ويصف كل واحد منهما جلال نفسه،ويذكر فضل ما اجتنى من غرسه.." (١).

ومن خلال أسلوب فريد لدى (ابن برد الأصغر) يبدأ مناظرته بين دعامتى الدولة "السيف والقلم" معتمدا فى أسلوبه على الحوار أداة، والمنطق وسيلة تدعيما لرأى ،وإقناعا للخصم، ولميله الخفى إلى القلم ــ الذى يرمز به لطبقة الكتاب الطامحين إلى مكانة تدنو من مكانة أصحاب السيف ــ بدأ المناظرة على لسانه فى حوار أثير مغلف بثوب خيالى كبير، فيه شعور بالتفوق والتسامى بما حازه من فضل سماوى،إذ أقسم الله به فى كتابه، فيقول: "ها، الله أكبر : أيها السائل بدءاً يعقل لسانك، ويحير جنانك، وبديهة تملأ سمعك، وتضيق ذرعك، خير الأقوال الحق، وأحمد السجايا الصدق، والأفضل من فضله الله عزوجل فى تنزيله مقسما به لرسوله، فقال: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ (٢)وقال: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾(٣) فجل من مقسم، وعز من قسم، فما ترانى، وقد حللت بين جفن الإيمان وناظره، وجلت بين قلب الإنسان وخاطره؟ لقد أخذت الفضل برمته، وقدت الفخر بأزمته"(٤) .

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٤ .
(٢) سورة القلم آية (١) .
(٣) سورة العلق آية (٤) .
(٤) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٤ .

فالقلم يتباهى بتلك القداسة التى توج بها مقتبسا ذلك من بعض آى الذكر الحكيم، ومدعما ذلك التباهى بصوت عال يجعل هذه المناظرة تتباين بين الواقعية والخيالية.

ويرد السيف بأسلوب حاسم مؤكدا للقلم أن مناط التفضيل الفعل لا القول : "عدنا من ذكر الطبيعة الى ذكر الشريعة ... لا أسر ولكن أعلن، قيمة كل امرئ ما يحسن، إن عاتقا حمل نجادى لسعيد، وإن عضدا بات وسادى لسديد، أفصح والبطل قد خرس، وأبتسم والأجل قد عبس، أفضى فلا أنصف، وأمضى فلا أصرف"(١).

فالسيف يفخر بقدرته على الحسم، وترسيخ قواعد الملك حيث إنه "رمز القوة، ولا نجد فى كلامه إلا وجوها من الاكتفاء بالذات، والوعى بالقيمة الكبرى والتصرف وفقا لمنطق العنف والاعتدال.."(٢)

وقد أكد هذه المعانى بما تتطلبه المناظرة من وسائط لغوية مثل التأكيد فى قوله: "إن عاتقا حمل نجادى لسعيد، وإن عضدا بات وسادى لسديد".

ويكشف القلم عن تبرمه وضيقه فيرمى السيف بالجور والخيانة، ويباهى بما حازه من مناقب، ويبحث فى مصادر التاريخ على دليل يؤكد تغلبه على السيف، وازدواجية الفائدة لديه، ويتخذ مما فخر به السيف دليلا على إدانته والتقليل من قدره، فهو يفتح أبواب الفتن والفرقة، وإثارة الضغائن بين النفوس فيقول: "تسود ما بيض الصفاء، وتكدر ما أخلص الإخاء، وتؤكد أسباب الفتن، وتضرب بقداح الفتن .. أحكم فأعدل، وأشهد فأقبل ، وترحل عزماتى شرقا وغربا ولا أرحل! وهل أنا إلا قطب تدور عليه الدول، وجواد شأوه

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٤ .
(٢) النثر الأدبى الأندلسى فى القرن الخامس الهجرى ٢/ ٥٨٨ .

يدرك الأمل، شفيع كل ملك إلى مطالبه، ووسيلته إلى مكاسبه، وشاهد نجواه قبل كل شاهد ووارد معناه قبل كل وارد"[1].

وأمام استخدام الكاتب للفعل المضارع للدلالة على استمرارية فظائع السيف. يلجأ إلى نفس الفعل للتأكيد على استمرارية عطاء القلم،مما يرجح كفته،ويعلى من قدره،والتجاوز عن هفواته وزلاته .

وتأتى لجمل القصار المترادفة الأسلوب متناغمة مع ما يشيعه من معانى فيقول: "أحكم فأعدل، وأشهد فأقبل".

وتأتى صيغة الاستفهام بمعنى التعجب أو الإنكار ليثبت هذه المعانى لنفسه وينكرها على السيف، كما فى قوله: (وهل أنا إلا قطب تدور عليه الدول) .

فالقلم إذا أثنى على نفسه أثنى عليها من الجانب المثالى الذى يسهم فى منابع الخير، وإذا ذم خصمه لم يهتد إلى أحسن من مذمته بسلبه هذه الخصال المثالية التى يفتقر السيف إليها .

وهذا يؤكد براعة (ابن برد الأصغر) فى تقمص دور كل طرف من أطراف المناظرة سواء السيف أو القلم، والتماسه على لسان كل منهما ما يؤيد ادعاءه .ومقارعة الحجة بالحجة، باختراع القول، وتصوير الخيال، وصوغ المعانى، بما يدعم مكانتهما .

وتتطور صيغة الحوار بينهما، ويرد السيف على القلم بلغة خطابية حادة فيحمل على القلم بشدة وعنف، متجاوزا فى أسلوبه حدود التعقل إلى السخرية اللاذعة، وإلصاق التهم والمثالب به، فيصفه بحقارة الشكل، ورثاثة الحال، وبخس الثمن، فيقول: "أمستعرب والفلس ثمنك، ومستجلب وكل بقعة وطنك، جسم عار، ودمع بار. تحفى فتنعل بريا، حتى يعود جسمك فيا، إن الملوك لتبادر إلى دركى، ولتتحاسد فى ملكى"[2].

---

(١) الذخيرة ق١ م١/ ٥٢٤ ــ ٥٢٥ .
(٢) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٥ .

وقد أكد هذه المعانى بكثرة الجمل وتعاقبها على المعنى الواحد. مع اهتمامه بالسجع والازدواج الذى يعطى تنويعا أسلوبيا يجذب المتلقى ،ويجعله متأملا لما يبغيه الكاتب من وراء هذه العبارات من الإشارة إلى دلالات عنصرية تعمل على "إذلال الخصم وكسر هيبته، والتهوين من شأنه"(١) .

وإذا كان السيف تجاوز حد التعقل فى أسلوبه مع القلم، فإن القلم يتخذ أسلوبا مغايرا ويرد اتهامات السيف بأسلوب هادئ قائم على الحجة والبرهان، ودحض كل نقيصة ألصقها به ،فيقول: "إن ازدراءك بتمكن وجدانى، وبخس أثمانى، لنقص فى طباعك، وقصر فى باعك، ألا وإن الذهب معدنه العفر، وهو أنفس الجواهر، والنار مكمنها فى الحجر، وهى إحدى العناصر، وإن الماء وهو الحياة أكثر المعايش وجدانا، وأقلها أثمانا، وقلما تلقى الأعلاق النفيسة، إلا فى الأمكنة الخسيسة، وأما التعرى فغنينا بالجمال عن جر الأذيال، وهل يصلح الدر حتى يطرح صدفه، .. ولولا جلاء الصياقل صداك لأسرعت ذهابا ، وعدت مع التراب ترابا"(٢).

وكأن (ابن برد) يدافع من طرف خفى عن النظرة الدنيا فى عين الجند، واستخفافهم بالواقع الاجتماعى للأدباء، استنادا إلى ما تحمله كلمة العرى من دلالات اجتماعية فى قوله: "وأما التعرى فغنينا بالجمال عن جر الأذيال".

إلى جانب ذلك لجأ فى أسلوبه إلى صيغ المفاضلة التى تناسب هذا الموقف القائم على المناظرة والاحتجاج، كقوله: "وإن الماء وهو الحياة أكثر المعايش وجدانا وأقلها أثمانا" .

---

(١) فن المقامة والرسالة الأدبية فى الأندلس صـ٢٩٧.

(٢) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٦ . العفر محركة: ظاهر التراب والجمع أعفار – القاموس المحيط: ٥٦٨(عفر)، العلق بالكسر: النفيس من كل شئ – القاموس المحيط:١١٧٦(علق).

وهو بذلك يتخذ من هذه المناظرة الاحتجاجية وسيلة لاستعراض ثقافته فى مناحى التفكير الدقيق القائم على الاستقصاء، حيث يحاول كل فريق دفع حجج خصمه وإفحامه بأسلوب المناطقة فى التماس القياس.

ويزداد اللجاج حدة، ولا يدخر أحدهما وسعا فى مقارعة صاحبه، وانتقاص قدره، والاستئثار بالمحاسن دونه فيقول السيف: "جعجعة رحى لا يتبعها طحن، وجلجلة رعد لا يليها مزن ، ... أكرع يوم الوغى فى لبة البطل، فأعود كالخد كسى صبغ الخجل، كأنما اشتملت بالشقيق، أو شربت ماء العقيق"(١).

فـ (ابن برد) يحاول إبراز بشاعة السيف من تخضبه بالدماء، التى تشبه الشفق، والعقيق الأحمر، مبرزا هذه المعانى عن طريق البراعة التصويرية التى تتعدد أنماطها، وتتنوع وسائل تشكيلها، وإن كان التشبيه أكثرها بروزا، كقوله: "أكرع يوم الوغى فى لبة البطل..." إلى جانب المثل الذى يبرز المعنى وضوحا حتى يكون آكد فى النفس، وهو ما تستوجبه طبيعة المناظرة والمحاجة، كقوله : "جعجعة رحى لا يتبعها طحن، وجلجلة رعد لا يليها مزن" وهى أمثال تقال لمن يكثر الكلام ويقل من الفعال.

فيرد عليه القلم بنفس الأسلوب القائم على التمثيل، والأمثال المأثورة، والتصوير البارع ،فيقول: " إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا، ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمرة، إن ماءك السائل لجامد، وإن جرمك الملتهب لبارد .. أنجلى عن المهارق انجلاء الغمام عن الحدائق، وأرقم فى بطون الصحف، مالا يرقم الربيع فى الروضة الأنف"(٢).

---

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٦ ، الشقيقة: من البرق ما انتشر فى الأفق، ووجع يأخذ نصف الرأس – القاموس المحيط:١١٦٠(شقق) . العقيق: خرز أحمر ، وماء عق: مر – نفسه:١١٧٤(عقق) .

(٢) الذخيرة ق١ م١ /٥٢٦ ، ٥٢٧– المهارق:جمع مُهرق وهو الصحيفة ،القاموس المحيط:١٢٠٠(هراق)،الأنف:أرض لم ترع .

فجاءت صورة مبتكرة تدل على مهارة فائقة، وتدلل على عظم منزلة القلم الذى يمثل طبقة الكتاب، كقوله: "أنجلى عن المهارق انجلاء الغمام عن الحدائق، وأرقم فى بطون الصحف، ما لا يرقم الربيع فى الروضة الأنف".

إلى جانب ذلك لجأ (ابن برد) إلى استخدام التضاد لإبراز المعنى وضده وهو ما تستوجبه طبيعة المناظرة وحسن الرد على الخصم، كقوله: "إن ماءك السائل لجامد، وإن جرمك الملتهب لبارد".

وفى نهاية الرسالة تظهر شخصية (ابن برد) لتتصدر الأحداث فى محاولة منها لحسم المنافسة بين الطرفين ، وتعمل على تحقيق التوازن بينهما ، فيقطع المشهد الحوارى ــ الذى طالما تأرجح بين الحدة والهدوء، والروحانية والمادية ــ بمشهد سردى منهيا به ما نشب بينهما من خصومة بعد أن " كثر تعارضهما، وطال تراوضهما، وقابل كل واحد منهما بجمعه جمعا، وقرع بنبعه نبعا، ولم ينثن أحد الصارمين كهاما، ولا ارتد أحد العارضين جهاما، تبادرا إلى السلم يقعدان لواءها، وإلى المؤالفة يردان ماءها، وقالا إن من القبيح أن تتشتت أهواؤنا، وتفرق آراؤنا، وقد جمعنا الله فى المألف الكريم، وأحلنا فى محل غير ذميم بأعلى يد نالت آمالها"[1].

وهذا أسلوب فيه قدرة على توليد الأفكار والبراهين، وصوغ الكلام وحوكه حياكة تموج بالعذوبة، وهذا شأن (ابن برد) إذ كان يعرف كيف يصطفى ألفاظه، وكيف يلائم بينها ملاءمات موسيقية بديعة[2].

---

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٧ ، الصارم: السيف القاطع- القاموس المحيط:١٤٥٧(صرم)، كهاما: رجل كهام: كليل عيى بطئ مسن، لا غناء عنده – القاموس المحيط:١٤٩٢(كهم) .

(٢) عصر الدول والإمارات ــ الأندلس ــ د/شوقى ضيف صـ ٤١١

وبعد ذلك يتوجهان بالمدح إلى الموفق أبىالجيوش مجاهد العامرى "مولى المعالى ومسترقها، ومستوجب المكارم ومستحقها"[1].

ويبادر الكاتب على اختتام المناظرة بينهما، فيجمع رأيهما على أن يكتب القلم ميثاق تصاف يجسد رغبتهما فى نبذ كل خلاف. وهنا ينهى (ابن برد) المناظرة على لسان القلم كما بدأها دلالة على ميله الخفى إليه فى لاشعورد لعلاقة النسب التى تربط بينهما، ولفت الأنظار إلى طبقة الكتاب، وبيان أهميتهم فى الدولة، باعتبارهم لسان حالها فى تصريف أمورها، والإشادة بتراثها الفكرى والحضارى، وثرائها الثقافى.

فيقترح القلم أن يعقدا معاهدة خطية بينهما حتى لا يسعى أحد بالنميمة بينهما أو الوقيعة، "فقد يدب الدهر بعقاربه، بين المرء وأقاربه، ويسعى بالنميمة.." [2].

فقال السيف: "أنت والبيان"[3] ، فقال القلم: "النثر فى ذلك مثل يسير، وإن الشعر فى ذلك ذكر خطير، فاختاره على النثر، تنويها بالذكر، فقال:

قد آن للسيف ألاّ يفضل القلما ∴ مذ سُخِّرا لفتىً حاز العُلى بهما
إن يُجتنى المجدغضًّا من كمائمه ∴ فإنما يُجتنى من بعض غَرسهما
ما جاريا أمَلاً فوافيا أمَداً ∴ إلا وكانت خِصالُ السّبق بينهما
رَاحابكفّأبى الجيش التى خلقتْ ∴ غمامةً كل حينٍ ثمطِر النّعما
فعاد حَبلهما المنبتُّ مُنعقدا ∴ وراحَ شملهما المنفضّ مُلتئما
يا أيّها الملك السامى بهمّته ∴ إلى سَماء علاً قد أعيتِ الهِمما
لولا ظِلابىغريبَ المدح فيك لَما ∴ وَصفتُ قبل عُلاك السيفَ والقلما
وإنّما كان تعريضاً كشفتَ به ∴ من البلاغةِ وجهاً كان مُلتثما[4]

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٧ .
(٢) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٧ .
(٣) نفسه ق١ م١ / ٥٢٧ .
(٤) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٨ ، الأبيات من بحر البسيط .

ومن هنا كانت رسالة (ابن بردالأصغر) تعبيرا عن إحساس وشعور - كواحد من الكتاب- بالسخط، ودعوة لتحقيق المساواة بين الأدباء والجند، فجاءت مناظرته بين السيف والقلم تعلة لمدح الأمير، والإفاضة فى ذكر مآثره، ولكن دعوته ذهبت أدراج الرياح "فالتسوية .. حلم من أحلام أصحاب القلم فى دول تقوم علاقاتها الداخلية والخارجية على قوة الجند ،وحسن استعدادهم"(١)،

ورغم ذلك فإن ابن برد استطاع أن يجمع بذكائه بين المهارة فى الصنعة والجرأة فى طرح قضيته الجادة، فصدق ما قيل فى وصفها على لسان ابن بسام بأنها: "من بدائعه العقم، المستنزلة للعصم"(٢).

(١) تاريخ الأدب الأندلسى ــ عصر الطوائف والمرابطين ــ د.إحسان عباس صـ٢٨٩ .

(٢) الذخيرة ق١م١/ ٥٢٣،الرسالة الأدبية فى النثر الأندلسى ١٢٩ .

ثالثا : "النمط الفكاهى"

الفكاهة "موهبة من المواهب السامية التى تفرد بها الإنسان دون غيره من المخلوقات، وتعد من جلائل النعم على البشرية إذ تبدد بما تشيعه من بشر وانطلاق أحزان النفس وانقباضها"(١).

وهى ذات صلة سياسية بما شاع فى عصر الطوائف من الزهد والمجون نتيجة لاضطراب الظروف السياسية التى نزعت اليقين من النفوس، ورمتها فى أحضان اليأس والتشاؤم، فليس بغريب بعد هذا أن يطلب بعض الناس لأنفسهم مهربا من هذه الأفكار السوداوية فيتوجهوا إلى عالم أخف ظلا يلتمسونه فى الزهد مرة، وفى الدعابة أخرى(٢).

مما جعل الشخصية الأندلسية مؤهلة لاحتضان الفكاهة سلوكا ونمط حياة، فأضحت سمة أصيلة من مكونات الوجدان الأندلسى، وأصبح اتجاههم إليها "يكاد يكون شاملا، حتى لقد توفر عليها جماعة من الأمراء والفقهاء والوزراء، بل كانوا يمتدحون أهلها، ويشيرون إلى خصائصها المتميزة فى الإنسان ولو كان عالما"(٣).

وساعد ذلك إلى الانتقال بها من الإطار السلوكى إلى المجال الإبداعى "فأصبحت طرائقهم فى السخرية والفكاهة ـ وخاصة طريقة الجاحظ ـ مطلبا يحاولون بلوغه"(٤).

---

(١) دراسات أدبية د/عمر الدسوقى ١/ ١٦٥ مكتبة نهضة مصر .
(٢) البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر عصر ملوك الطوائف د/ سعد شلبى صـ ٥١٠ .
(٣) أدب الفكاهة الأندلسى دراسة نقدية تطبيقية د/ حسين طربوشى صـ ٤٩ منشورات جامعة اليرموك الأردن ١٩٨٢م .
(٤) أدب الرسائل فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى فايز عبدالنبى القيسى صـ ٢٣٣ ط دار البشير للنشر والتوزيع عمان سنة ١٩٨٩م.

وجرى النثر بجانب الشعر فى تأثره بالفكاهة تأثرا فاق الشعر نفسه فى إشاعة الروح الهزلية الساخرة، التى ترجع إلى الرفعة الذهنية، والتقدم الحضارى، فضلا عن صيرورة النثر أداة طيعة لدى الكتاب الذين جل أثرهم فى العهد الطائفى"(١).

وبالنظر فى هذا الجانب الفكاهى فى نثر (ابن برد الأصغر) نجد له رسالة رائعة فكهة تسمى بـ"النخلة" جعل فيها من ذم البخل والبخلاء غاية تسعى لتقريرها، مما يدنيها من مدارات السخرية الفكهة التى صبغت الوجدان الأندلسى آن ذاك "فالظرف فيهم والأدب كالغريزة حتى فى صبيانهم ، فضلا عن علمائهم وأكابرهم"(٢).

رسالة النخلة "رمز للكدية الأندلسية" :

وقد صاغها (ابن برد الأصغر) فى إطار قصصى محكم، وأسلوب خيالى ممزوج بالفكاهة والسخرية، واستعراض لثقافته، وما حفظه من فروق لغوية دقيقة فى هذا المضمار.

وقد بدأها بدعاء لصديق ــ لم يعينه ــ متكئا فيه على التعريض بشحه، وعدم الوفاء بوعده، فقال: "أما بعد ــ جعلك الله من المؤثرين على أنفسهم، والموقين شحها، المنجزين لمواعيدهم، والمعطين صدقها، فقد علمت ما سلف لنا فى العام الفارط من عتابك كما كتمتنا صرام النخلة التى هى بأرضنا إحدى الغرائب .." (٣).

ثم يتخذ من هذا الدعاء الساخر وسيلة لحكايته التى راح يحكى طرفا منها، فى أن صديقا له ولبعض أصدقائه كان قد بعث الأمل فى نفوسهم بإعطائهم نصيبا من تمر نخلته إن هى أثمرت فى عامها المقبل، ولكنه أخلفهم الموعدا، وجنى ثمارها ليلا، دون إخبارهم،

---

(١) أدب الفكاهة الأندلسى صـ٤٦ .

(٢) نفح الطيب للمقرى ٣/ ٣٨١ .

(٣) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٨ – صرامه:أوان إدراكه– القاموس المحيط:١٤٥٧(صرم) .

وإنجاز وعده لهم، والاستحواذ عليها دونهم، فيقول بأسلوب وظف فيه اللغة بإيحاءاتها وظلالها لتوليد عنصر السخرية: "لو علمت أن لكم به هذا الكلف، وإليه هذا النزاع لأمسكته عليكم، وجعلت حكم جداده إليكم؛ ولكنها إن شاء الله فى العام الآنف غلتكم، عتاد نفيس لكم، وذخر حبيس عليكم ... حتى إذا أخذت الأرض زخرفها. وازينت زينتها، وبلغت غايتها، وأحكمت الشمس نضجها، أبت إليها إيابة الأسد بفريسته، وتحكمت فيها تحكمه فى عنيزته"(١).

وترتفع حدة السخرية الممزوجة بالطرافة عندما يلتقون فتى صغيرا يعيش نفس المأساة فى الخيبة وفوت الأمل، يبكى زوال تمر هام به عشقا منذ زمن طويل، ولم ينل منه سوى لذة النظر ويسيرا مما كانت تغدق به العصافير عليه شفقة ورأفة بحاله من طول نظراته ولحظاته، فقال: "يا لإخوانى فى الخيبة، وشركائى فى فوت الأمل، أنا ساكن المحلة التى منبت هذه النخلة فى ساحتها، وقد صرمها منذ خمسة عشر يوما، ولقد كنت قبل صرامها أمنحها نظر العاشق إلى المعشوق، فإذا رأت الطير وهى على سعفها ما أواصل إليها من لحظاتى، وأتابع عليها من زفراتى، رمتنى بأفراد من رطبها أحلى من شفاه العذارى، وأنا اليوم أبكى منها ربعا خاليا. وبعد ثالثة أغدو عنها جاليا"(٢).

وهذا يدل على مدى تفاعل الكاتب بطبيعة بلده انفاتنة، والتصاقه بها، فيفضى إليها بأسراره حين تشتد عليه المحنة وصعوبات الحياة، فيفزع إلى الطير بنظراته ، فتحن عليه بتمرات،

---

(١) نفسه ق١ م١/ ٥٢٨ ، الجداد بفتح الجيم وكسرها:صرام النخل – انقاموس المحيط:٣٤٦(جدد) ،غلتكم : الغلة: العطش أو شدته– القاموس المحيط:١٣٤٣(غلل) .

(٢) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٩ . . .

وهذا يدل على تنامى المحبة والعاطفة بين الإنسان والطير فى الأدب الأندلسى.

ويتطور الحديث وينتقل الكاتب من ذم البخل والسخرية من البخلاء إلى الحديث عن النخلة، وصفاتها، ورصد أسمائها، مستعرضا ثقافته وموفور حفظه من فروق لغوية دقيقة، وذلك عندما تطلب الجماعة من صاحب النخلة إعطاءهم اليسير من التمر مقابل الترويح عنه،وإمتاعه بما يحسنون من غريب اللغة، ورقيق الشعر حول النخل ونباته ، والتمر وتلون حالاته، فيقول: "نحن عصابة نتحلى بأدب، وننتمى إلى حفظ غريب وصياغة قريض، وربما لم تصدق فى هذا الطريق مضاءنا.. فأردنا أن نصف لك شيئا من كلام العرب فى النخل وبدء نباته، والتمر وتلون حالاته، فإن سرك ما جئنا به، وراقك ما أفضنا فيه، جعلت جوائزنا تمرا، وكان ذلك لنا ذخرا. نعم، تقول العرب فى صغار النخل: الجثيث ، والودى، والهراء، والغسيل، والأشاء، والكافور، والضمد، والإغريض"[1].

وبعد أن شنفوا أذنه بما قالته العرب فى النخل وثماره وأسمائه، وتبينوا أن الشح بالغ فى نفسه، ومترسخ فى قلبه، وأن عطاءه نذير، ونواله جد يسير، لجأوا إلى حيلة أخرى لاستدرار عطفه ــ وهذه سمة المحتاجين ــ بذكر مناقب النخلة نظما ونثرا، بأسلوب قائم على التفكه والتندر، والاتكاء على المطابقة التى تثبت المعنى وضده حتى يكون آكد فى النفس، متأثرا فى ذلك بطريقة "الجاحظ "

(١) الذخيرة ق١ م١/ ٥٣٠ – الجثيث:ماأشرف من الأرض . القاموس المحيط:٢١٣(جث) ،الودى :صغار الفسيل- نفسه:١٧٢٩(ودى) ،الهراء:فسيل النخل- نفسه:٧٢(هرأ)، الأشاء:صغار النخل- نفسه:٤١(أشأ)،الكافور:نبت طيب والمراد به هنا الطلع- نفسه:٦٠٦ (كفر)،الضمد:الرطب- نفسه:٣٧٧(ضمد)،الإغريض:الطلع الطرى- نفسه:٨٣٦(غرض).

فيقول (ابن برد): "فيا أبا عبدالله أمجدنا رطبا، نمجدك خطبا، هذا قليل من كثير، وثماد من بحور، وليس يطيب وصفنا نظما ونثرا لمناقب هذه النخلة إلا بعد اختيارنا منها، وفوز قداحنا بها، إذا أنت فعلت فكلفنا فيها خاصة ما تكلفه عمرو بن بحر الجاحظ فى نخل الدنيا عامة نأتك به، ونربى فيه عليك، ولعلك تحب أن تسمع شيئا من منظوم الكلام فى النخل يذيب جمودك ، ويولد عقيم جودك .. أنشد الأصمعى لأبى الغفار الرياحى:

غدتْ سلمى تعاتبنى وقالتْ ∴ رأيتك لا تريغ لنا معاشا
فقلتُ لها أما تكفيكِ ذهمٌ ∴ إذا أمحلت كُنّ لنا رياشا

الأبيات[1].

ثم يبين قيمة النخلة وأهميتها فى المعاش والاقتيات ، وتوصية الرسول ﷺ بها فى حديثه الشريف حيث جعلها عمة لكل المسلمين. وأنه بذلك قد استحوذ بخيرها دونهم، ومنع معروفها عنهم، فوجب عليهم تحريرها من بين يديه، فيقول معبرا عن ذلك بأسلوب بين الجد والهزل، مما وسمه بالطرافة والمتعة: "فى النخل التى رزقنا الله كفاف من العيش كاف، وبلغة من القوت مقنعة، ثم أعظم من أمرها بدنو طعامها فى الجدوب ، وصبرها لتصرف الليالى والأيام .. فلعن الله الشيطان وأعاذنا منه، وصلى الله على محمد ولا صدنا عنه، فإنه يقول: "نعمت العمة لكم النخلة"[2] ، والخطاب لجميع المسلمين، وأنت

(١) الذخيرة ق ١ م ١ / ٥٣١. الذهم: الدهمة: السواد. والذهم: من البعير الشديد الورقة حتى يذهب البياض. أمحلت: المحل: الجدب وانقطاع المطر. رياشا: الريش بالكسر الطائر، والرياشى: الخصب والمعاش.

(٢)الجامع الصغير للسيوطى ١/٢٣٢ت محمد عبدالرؤوف المناوى ط دار طائر العلم –جدة.

قد استوليت على صفة من عمائهم، تستبد بخيرها دونهم، وتمسك معروفها عنهم، ونحن رجال من بنى أخيها أتينا نعتفيها"(١).

وبعد أن أعيتهم الحيلة وأيقنوا أن حديثهم ضاع سدى، ومجهودهم معه أصبح هدرا، ارتفعت لغة الخطاب وتبدلت من الاستجداء، والاستعطاف المشوب بنبرة الخضوع والخنوع إلى الخطاب التهديدى ذى النبرة العالية: "فإن أنت سويتنا مع نفسك فيما تدر به عليك، وتملأ منه يديك، وإلا نافرناك إلى السلطان، وألبنا عليك أبناء الزمان"(٢).

بعد هذه السياحة الممتعة مع (ابن بردالأصغر) فى رسالته الفكاهية "النخلة" يتضح أنه صاغها فى قالب يقترب من المقامة، يعكس فيها أثر الاتجاهات الفنية المشرقية، فى ذم البخل والسخرية منه، من خلال صور هزلية ضاحكة ساخرة ، وهى تعد امتدادا لتأثير مقامات بديع الزمان الهمذانى ت(٣٩٨هـ) والحريرى (ت٥١٦هـ) فى رسالة النخلة ــ لابن برد الأصغر ــ فكلها "تقوم على معانى الكدية. والإلحاح فى الطلب، والتوسل إلى ذلك بأنواع الحيل والثقافة الأدبية"(٣)

(١)الذخيرة ١/ ١/ ٥٣١ .
(٢) نفسه ق١ م١ / ٥٣١ .
(٣) الفن ومذاهبه فى النثر العربى د/ شوقى ضيف صـ٢٤٧ .

المبحث الثالث: الرسائل الإخوانية (البناء)

بعد القراءة المتأنية التى عايشنا فيها النثر الإخوانى لابن برد الأصغر، فى شقه النمطى الموضوعى، تبين أن هناك ثمة وسائل فنية اتكأ عليها فى بناء نثره الإخوانى، تمثلت فى: الأسلوب، والصورة والإيقاع.

أولا : البناء الأسلوبى

جاء نثر ابن برد الأصغر الإخوانى مفعما بعدة وسائل أسلوبية رسمت صوره وحددت ملامحه منها:

الألفاظ: وتعد الألفاظ الأساس الأول فى صياغة الأساليب الأدبية، وهى "وسيلتنا الوحيدة إلى إدراك القيم الشعرية فى العمل الأدبى، والأداة المهيأة للأديب لينقل إلينا خلالها تجاربه الشعورية"(١).

وقد كان (لابن بر الأصغر) نصيب من الاهتمام بألفاظه ومعانيه، وأن ما أحرزه من الظهور والتفوق فى مجال الأدب والنثر الإخوانى منه بخاصة، كان مرده فى الدرجة الأولى إلى تفوق لغته الأدبية، وامتلاكه ناصية البيان، وهو ما هيأ له عيشة هنية، ومكنه من مجالسة الأمراء والوزراء.

وقد اتسمت هذه الألفاظ بقيم فنية رفيعة، جعلت ما سطره يراع ابن برد فى قائمة الأدب البليغ الرصين، الذى جاء تجسيدا رائعا لبلاغة زمانه، وبعيدا عن التقعر والإغراب، ومائلا إلى "السهولة واليسر والقوة البيانية"(٢).

ويمتاز(ابن بردالأصغر) بتأنقه فى اختيار ألفاظه، وحذقه تجويد رسائله وتنميقها، واختيار اللفظ الموحى المنزه عن الضعف

---

(١) النقد الأدبى الحديث أصوله ومناهجه سيد قطب صـ ٧٠ .
(٢) النثر الأدبى الأندلسى صـ ٦٣٩ .

والركاكة، البعيد عن التعقيد والغموض، الخالى من الحشو والابتذال، بل المعبر تمام التعبير عن المعنى.

فنجده يرق ويصفو أسلوبه، فيتسرب فى هدوء وسكينة إلى النفس، حيث يخالط الوجدان، ويتخلل المشاعر، حين يعاتب صديقا كان قريبا من قلبه مذكرا ما كان بينهما من محبة ومودة يخشى أن تنقطع فيقول: "وهذه ثغرة إن لم تحرسها المراجعة، وتُذْك فيها عيون الاستبصار، توجهت منها الحيل على هدم ما بيننا، ونقض ما اقتنينا. وتلك ناعية الصفاء، والصارخة بموت الإخاء"(١).

فهذه ألفاظ تفيض رقة، وعذوبة، جاءت متناغمة مع ما يرمى إليه (ابن برد) من الحفاظ على أواصر الود والمحبة مع صديقه، وعدم إعطاء الفرصة للمتطفلين لينفذوا من هذه الثغرة، فيكون ذلك ناعية الصفاء، والتصريح بموت الإخاء.

إلى جانب ذلك حرص (ابن برد) على أن تأتى مفرداته جزلة فصيحة بعيدة عن الغرابة، متفقة مع ما أوضحه ابن الأثير بقوله: "ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيا متوعرا عليه عنجهية البداوة، بل أعنى بالجزل أن يكون متينا على عذوبته فى الفم ولذاذته فى السمع"(٢).

ومن خير ما يمثل ذلك قوله ــ فى مناظرته الخيالية بين السيف والقلم ــ على لسان السيف: "أكرع يوم الوغى فى لبة البطل، فأعود كالخد كسى صبغ الخجل، كأنما اشتملت بالشقيق، أو شربت ماء العقيق"(٣).

---

(١) الذخيرة ق١ م١/ ٥٠١، وانظر أيضا رسائله فى مدح الإخاء. الذخيرة ١/ ١/ ٥٠٤ .

(٢) أمراء البيان محمد كرد على صـ١٨٠ .

(٣) الذخيرة ق١/م١/٥٢٦.

فكلمة "أكرع" وإن كانت تظهر عليها سمة الغموض إلا أنها مع انتظامها فى السياق النصى تبدو بعيدة عن الغموض والإغراب ،وإن كانت جزلة قوية رصينة متينة تثير فى نفس المتلقى الرعب والوجل، وهما مقصودان هنا لذاتهما، لما توحيه من تصوير رائع يبدد هذا الغموض، ويدفع ذلك الإبهام.

ويعتبر (ابن برد) من شعراء عصره الذين عنوا عناية فائقة بأشعارهم حتى صار من كبار الشعراء فى وقته، وكان لذلك مردود طيب أثّر تأثيرا مباشرا فى نثره فأثرى لغته الأدبية التى اقتربت فى معظمها من مدارات الشعر، فذهب يخوض بملكته النثرية حقولا جديدة ظلت فترة طويلة من الزمن موقوفة على الشعر، ومن ذلك دعوته لصديق له أن يخف إلى مجلس أنس ليلا فى رحاب الطبيعة، فيقول: "البدر صنوك، فإن طلعت معه على ذعر الخافقان، والشمس تربك، فإن صاحبتها إلى استراب الثقلان؛ فاجعل ليالى السرار مواقيت الازديار، وأيام الانكساف ساعات الائتلاف"(١).

فى هذه القطعة النثرية نلمس هيمنة الخيال التصويرى على أسلوبه المتشح بشعرية اللفظ والمعنى، مما يرفع نثره إلى درجة عالية فى سلم البلاغة والبيان.

كما تؤدى الجمل المتوازنة فى الإيقاع دورا حيويا فى خلق جو نغمى موسيقى، ومن ذلك قوله من رسالة السيف والقلم: "إن التسابق من جوادين سبقا فى حلبة، وقضيبين نسقا فى تربة، والتحاسد من نجمين أنارا فى أفق، وسهمين صارا على نسق...".

فهناك توازن وانسجام بين هذه التراكيب:

---

(١) نفسه ق١ م١ / ٥٠٢ ــ ٥٠٣ ، الخافقان: المشرق والمغرب لاختلاف الليل والنهار فيهما- القاموس المحيط:١١٣٦(خفق).
الترب: بكسر التاء: اللدة والسن ومن ولد معك – نفسه:٧٨(ترب)..
السرار: آخر ليلة من الشهر – نفسه:٥٢١(سرر).

سبقا فى حلبة / نسقا فى تربة
أنارا فى أفق / صارا على نسق

ومردود ذلك إلى تفجر موهبته الشعرية التى أسهمت فى إثراء نثره بعناصر الشعر الإيقاعية، التى أضفت عليه السلاسة والرقة والعذوبة.

وغاية ما فى الأمر أن (ابن برد الأصغر) لم يلتزم نهجا واحدا فى اختيار ألفاظه، وإنما راعى مقتضى الحال فجاءت ألفاظه على أقدار معانيها، وكانت مناسبة لموضوعات نثره، فهى ترق حينا وتجزل حينا آخر، وهى فى الأحوال كلها بعيدة عن الابتذال والإغراب.

وإذا كانت لغته النثرية قد اقتربت من مدارات الشعر فإنها جاءت موحية مشعة، ومن ذلك تصويره الرائع لخائن الصداقة التى لا يرعى لها حرمة، ولا يوفى لها عهدا أو ميثاقا فيقول: "شر بقعة لغرس المودة وبذر الإخاء ، قصير الوفاء للإخوان ، عون عليهم مع الزمان ، هو كدر الدنيا وسقم الحياة ، رقدت ملء عينى فى فراش القلى له ، وشربت ذلال ماء العزاء عنه ، مرب لأطفال الإحن ، محى لأموات الدمن"(١).

فالكاتب ينبه إلى صفة ذميمة وهى الحقد بين الأصدقاء، فهو خلق خطير ينبت العداوة، ويقضى على كل أواصر المودة والمحبة .

وكانت وسيلة الكاتب فى إظهار هذا الخلق الذميم والتحذير منه، الألفاظ المشعة التى احتوى عليها هذا النص لتعطى أسلوبه تصويرا رائعا، مثل: "قصير ، عون ، كدر ، سقم ، المحن ، الدمن".

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٥٠٥ . الإحن : الإحنة الحقد والغضب - القاموس المحيط: ١٥١٦ (أحن).

وهكذا نجد أن الكلمة فى نثر (ابن برد الأصغر) وجدت من العناية ما جعلها أساسا لإقامة الصروح العالية من بديع بيانه، وفريد رسائله.

ولم تقف عنايته بمفرداته عند هذا الحد، بل وجدناه يسعى سعيا حثيثا لإثراء بنائه اللغوى بكل ما من شأنه أن يحقق غاياته. وذلك من خلال جمله التى جاءت متباينة فى مقاطعها كما سنرى.

الجمل:

اتسم نثر(ابن برد الأصغر) بتباينه فى جمله، فتارة يميل إلى قصر الجمل المتوازنة، التى قد لا تتجاوز الواحدة منها كلمتين أو ثلاث، مما يشعر قارئه بتوازن صوتى بين المقاطع، تأنس له الآذان، وهذه الجمل تشكل جزءا مستقلا فى معنى عام، ومن ذلك قوله فى وصف مجلس له مع أصدقائه : "عندنا بلبل هزج، وساق غنج، وسلافتان: سلافة إخوان، وسلافة دنان، قد تشاكلتا فى الطباع، وازدوجتا فى إثارة السرور.." (١).

وقد تأتى جملة متوسطة الطول متناغمة فيما بينها، ومتأرجحة بين الإيجاز والإطناب، ومن ذلك قوله من رسالة لصديق له يدعوه إلى مجلس علم وفكر وأدب فيقول: "فإن رأيت أن تخف إلى مجلس قد نسخت فيه الرياحين بالدواوين، والمجامر بالمحابر، والأطباق بالأوراق، وتنازع المدام بتنازع الكلام، واستماع الأوتار باستماع الأخبار، وسجع البلابل بسجع الرسائل، كان أشحذ لذهنك، وآنس لخاطرك.." (٢).

وقد تأتى جملة تارة أخرى مفرطة فى الطول كرسائله فى النخلة، والمناظرة بين السيف والقلم، وحواريه فى الزهور، وهو فى كل ذلك إلى الاسترسال أقرب ، وإلى الإطناب أميل، ويأتى ذلك موافقا

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٥٠٢ .
(٢) نفسه صـ٥٠٣ .

مع أفكاره وأغراضه، ومن ذلك قوله فى رسالته النخلة مظهرا بخل صاحبه ورجوعه عن عهده الذى قطعه على نفسه بأن ينفق منها على غيره: "فما هذا الخيس أبا عبدالله بعهدك، وما هذه الربدة فى وجه عدوك، وما هذا الاستئثار على إخوانك المؤثرين لك؟ إن كنت لم تحضرنا يوم صرامها لنحتكم على قولك فيها، ونأخذ معك بأجزل الأقسام منها.."[1].

وهذا الإطناب فى الجمل يأتى متوائما مع الفكرة العامة للرسالة حيث صاغها الكاتب فى قالب قصصى سردى، مما يناسب هذا المقام. وهو بذلك يأتى موافقا لما نبه عليه الجاحظ قديما: "وللإطالة موضع ليس بخطل، وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز"[2].

التنويع الأسلوبى:

من خصائص أسلوب ابن برد "التنويع" وبخاصة حين يعيش حدثا أو تجربة، ويقوى انفعاله بها، فنجده ينوع فى أسلوبه تبعا للتغير الذى يحدث فى إحساسه، فتارة يلجأ إلى الأسلوب السردى توضيحا لموقف، أو استماعا لصوت قلب كما فى رسائله فى الوصف، أو المدح والإخاء، أو العتاب[3].

وتارة يزاوج بين الإيحاء والإفضاء للتعبير عما يريده، متكئا على القص والحوار فى تحقيق ما يرمى إليه، ومن ذلك(مناظرته بين السيف والقلم) [4] حيث اتخذ من الحوار المدعم تراثيا ومنطقيا وسيلة لرصد حالة من حالات الصراع القائم بين طبقة الكتاب وطبقة

---

(١) الذخيرة ق ١ م ١ / ٥٣٠ . الخيس:خاس بالعهد خيسا:غدر- القاموس المحيط :٦٩٩(خيس)،الربدة:لون إلى الغبرة – نفسه:٣٥٩(ربد).

(٢) الحيوان للجاحظ ١/ ٩٣ .

(٣) انظر الذخيرة ق١ م١ / ٥٠١ ــ ٥٠٤ .

(٤) نفسه ق١ م١/ ٥٢٣ ــ ٥٢٨ .

الجند وتمنى المساواة بينهما، باعتبارهما رمزين لقوة بوجهيها المادى والمعنوى، لا يمكن أن يستغنى بأحدهما عن الآخر.

وتارة يتخذ الرمز فى رسالته وسيلة ينفذ من خلالها للتعبير عما يريد كما فى حواريته بين الأزهار والنواوير، مقدما الورد على كل الأزهار والنواوير، ومتخذا منه رمزا لأميره (أبى الوليد بن جهور) ومقدما إياه على ما سواه من أمراء عصره.

وفى ذلك يقول(ابن برد) معلنا مبايعة كل الزهور (الأمراء)للورد (ابن جهور) : "أخلصت له ... وعرفت أنه أميرها المقدم واعتقدت له السمع والطاعة، والتزمت له الرق والعبودية" ثم راحت كل الزهور تعلن التبرؤ من كل نور يرفض هذا العقد متطاولا عليه أو رافضا إياه:"فأية زهرة قص عليها لسان الأيام هذا الحلف فلتعرف أن رشادها فيه، وقوام أمرها به"[1].

كما اعتمد على الأسلوب المقالى الإنشائى القائم على الجدل والحوار فى رسالته "البديعة فى تفضيل أهب الشاء على ما يفترش من وطاء" مترسما خطى الجاحظ[2]، وناسجا على منواله، ومتكئا على الحوار المدعم بالأدلة والبراهين المنطقية، بأسلوب فكه حينا، ولاذعا أحايين أخرى، تنبع من "إلباس الكاتب التافه من الأسباب ثوب الجد والوقار بتصيد العلل والتبريرات"[3] التى تبرز الأمر فإذا بها تعمل على إخفائه.

وفى هذه الرسالة يدافع ابن برد عن طبقة المعلمين الذين يفترشون هذه الأهب فيقول مخاطبا صاحبه: "وأخاف عليك ـ شحا بك ـ أن تستقبل بذم هذه الأهب كل مفترش لها مغتبط بها، فلا تجده إلا شيخا رائع الوسامة أبيض الشعرة ... قد حفظ المسائل، وملأ من

(١)الذخيرة ق٢ م١ / ١٣٠ .
(٢) البخلاء للجاحظ صـ٣٣ .
(٣) أدب الرسائل فى الأندلس صـ٢٤١ .

إجازات الشيوخ الخزائن، تقصده الفتيات والفتيان، وتفديه الجارات والجيران ..." [١].

وكانت المقامة من الأدوات الأسلوبية التى اتخذ منها قالبا لرسالته "النخلة" لما فيها من قص وإثارة ومباغتة، متأثرا فى ذلك بمقامات بديع الزمان الهمذانى والحريرى، التى تعكس أثر الاتجاهات الفنية المشرقية فى الأدب الأندلسى، ونزعة الاستجداء والكدية والإلحاح فى الطلب، وفى ذلك يقول (ابن برد)على لسان بعض رفاقه فى رسالته النخلة : "نحن عصابة نتحلى بأدب، وننتمى إلى حفظ غريب، وصياغة قريض .. فإن سرك ما جئنا به، وراقك ما أفضنا فيه، جعلت جوائزنا تمرا، وكان ذلك لنا أجرا"[٢].

وفى أحايين أخرى كان يلجأ إلى ما يتطلبه البناء الأسلوبى من تأكيد وتحقيق، وبخاصة فى رسالته (السيف والقلم) لأنها مقاد احتجاج والموقف يتطلبه فيقول على لسان السيف: "إن عاتقا حمل نجادى لسعيد، وإن عضدا بات وسادى لسديد.." [٣].

وقوله على لسان القلم فى مقام التحقيق: "لقد أخذت الفضل برمته، وقدت الفخر بأزمته"[٤].

ويشيع استخدام صيغ الاستفهام بغرض التعجب أو الإنكار والتحقير، فمن ذلك قول القلم متعجبا: "وهل أنا إلا قطب تدور عليه الدول، وجواد شأوه يدرك الأمل"[٥].

ويأتى الاستفهام للتحقير فى قوله على لسان السيف: "أمستعرب والفلس ثمنك، ومستجلب وكل بقعة وطنك؟" [٦] .

---

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٥٣٥ .
(٢) نفسه ق١ م١ / ٥٣٠ .
(٣) نفسه ق١ م١/ ٥٢٤ .
(٤) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٤ .
(٥) نفسه ق١ م١ / ٥٢٥ .شأوه:الشأو:السبق والغاية والأمد.
(٦) نفسه ق١ م١ / ٥٢٥ ..

ويتوسل بأسلوب التفضيل فى معرض المناظرة والاحتجاج فى قوله على لسان القلم: "إن الماء وهو أكثر المعايش وجدانا، وأقلها أثمانا"[1] ليبرز مكانته ،ويبين فضله.

ومن خلال ما سبق نلحظ أن هذا التنويع فى أسلوب (ابن برد) يعكس ولعه بالبحث عن أطر تعبيرية وأسلوبية جديدة جاءت متناغمة وممزوجة بما شاع فى عصره من أطر قديمة، وهو بذلك لا ينتمى إلى مذهب فنى واحد، وإنما كان يأخذ من كل مذهب بما يتواءم مع فكرته.

البديع:

مما يرفد أسلوب (ابن برد الأصغر) تسربله فى بعض نماذجه ورسائله بالنغمة الموسيقية المتعانقة مع التلوين العقلى القائم على المحسنات البديعية، ليزيد المعنى جلاء، والفكرة مضاء، ومن هنا جاءت المحسنات البديعية بأنواعها المختلفة عفوية بعيدة عن التكلف لما يملكه من مخزون لغوى ومعرفى أبعده عن التكلف المشين الذى يذهب برونق الكتابة، ويخلع عليها جلباب الغموض، مما جعلنا نحس فى نثره الإخوانى مسحة من الوضوح والجمال، وتناسبا بين الألفاظ والمعانى، مما يجعله أكثر تحريكا للنفس وتأثيرافيها.

ومن تلك المحسنات التى توسل بها (ابن برد) فى نثره الإخوانى،وجاءت تلقائية يستدعيها المقام : الطباق، والجناس، والمقابلة، والتورية وغيرها.

فمن الطباق قوله من رسالته فى العتاب: "عهدى بك وصلتنا تفرق من اسم القطيعة، ومودتنا تسمو عن صفة العتاب ونسبة الجفاء"[2] فقد طابق بين "صلة وقطيعة" وبين "مودة وجفاء".

---

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٥ .

(٢) نفسه ق١ م١ صـ ٥٠١ .

وقوله أيضـ : "فإما أن تدلى بحجة فأتنصل عنـدك، وإمـا أن تنبئ بحقيقة فأستديم خلتك "فالطباق بين أتنصل، وأستديم"[1].

وقوله فى مدح الصديق الوفى المخلص: "جلى من مطالبى مـا أظلم على، وأشعل من همتى ما خمد لدى "[2] فقد طابق بـين "جلـى وأظلم" و"أشعل وخمد" .

وقوله من رسالة السيف والقلم على لسان السيف مقللا مـن شأن القلم: "لا أسر ولكن أعلن"، "أفصح والبطل قد خرس، وأبتسـم والأجل قد عبس "[3].

فقد طابق بين (أسر وأعلـن) و(أفصـح وخـرس) و(أبتسـم وعبس) .

وقوله من رسالته النخلة : "هذا قليل من كثيـر، وثمـاد مـن بحور، وليس يطيب وصفنا نظما ونثرا لمناقب هذه النخلـة إلا بعـد اختيارنا منها ... ولعلك تحب أن تسمع شيئا من منظوم الكـلام فـى النخل يذيب من جمودك، ويولد عقيم جودك .." [4] فقد طـابق بـين (قليل وكثير) و(ثماد وبحور) و(نظما ونثـرا) و(يـذيب وجمـودك) و(يولد وعقيم) .

وهذه النماذج من الطباق والتضاد التى ساقها ابن برد ـ بعيدة عن التصنع، ووليدة الطبع، وغير مقصودة لذاتها ـ ليوشـح بهـا أسلوبه، ويحقق نوعا من الإيقاع الموسيقى النابع من هذا التقابـل. ويثير فى النفس الإعجاب والدهشة غبطة بالواحد وتخليا عن الآخر .

---

(١)الذخيرة ق١ م١ / ٥٠٢ .
(٢) نفسه ق١ م١/ ٥٠٤ .
(٣) نفسه ق١ م١ / ٥٢٤ .
(٤) الذخيرة ق١ م١/ ٥٣١ . ثماد: الثمد والثماد : المـاء القليـل – القاموس المحيط: ٣٤٥(ثمد).

أما الجناس: فقد وشح به رسائله لإحداث نوع من التناسب اللفظى، والإيقاع الصوتى، والترداد الموسيقى، كل ذلك دون تكلف أو أو اجتلاب لتكون الصورة أوقع فى الذهن ، وأليط بالقلب، وآكد فى النفس .

ومن ذلك قوله فى مدح أميره (ابن معن الصمادحى) : "ولقى عثرة العلم مقيلها، ودولة الجهل مديلها، ونخوة الباطل مزيلها، ورسوم الغباوة محيلها، وقداح البلاغة مجيلها، ورفعت لى صروف الأمانى عن الملك اليمانى.." [1] فقد جانس بين (مديلها ومزيلها) و(محيلها ومجيلها) و(الأمانى واليمانى) .

وقوله فى ذم الصديق الخائن: "كبد الزمان عليه قاسية، ونعم الله له ناسية"[2] فقد جانس بين (قاسية وناسية) .

وقوله على لسان السيف مقللا من شأن القلم: قوله : "إن أملوك لتبادر إلى دركى ... فتكللنى بالمرجان، وتُنعلنى بالقعيان، وتلحقنى بخلل كحلل، وحمائل كخمائل" فقد جانس بين (خلل وحلل) و(حمائل وخمائل) .

وقوله من رسالة النخلة: "وأنا اليوم أبكى منها ربعا خاليا، وبعد ثالثة أغدو عنها جاليا" فقد جانس بين (خاليا وجاليا) .

كل هذا من سبيل الجناس الناقص ،أما التام فلا سبيل له إليه وهذا فى الحق يجعلنا نشعر أن وراءه رغبة فى الإمتاع، وحرصا على نوع من الحلية والزينة بعيدا التكلف والتصنع .

وأما المقابلة: فقد جاءت قليلة نسبيا عن سابقيها، وهو أمر شائع فى نتاج الكثير من الكتاب، لأنها تحتاج إلى الجمع بين أكثر من معنى ثم الإتيان بما يقابله على نحو مضاد، مما يشق على الكاتب .

---

(١)الذخيرة ق١ م١ / ٤٨٩ .
(٢)الذخيرة ق١ م١/ ٥٠٥ .

ومن مقابلاته قوله فى الشكر: "من شكر النعمة التحف بها. ومن كفرها عرى عنها"[1] فقد قابل بين "شكر وكفر، والتحف وعرى. وبها وعنها".

وقوله فى شأن القلم: "ما أعجب شأن القلم، يشرب ظلمة. ويلفظ نورا"[2] فقد قابل بين (يشرب ويلفظ، وظلمة ونورا).

وقوله فى خائن الصداقة: "غنى من الجهل، مفلس من العقل فقد قابل بين (غنى ومفلس، والجهل والعقل).

وقوله من رسالة السيف والقلم على لسان القلم: "الحق أبلج. والباطل لجلج" فقد قابل بين (الحق والباطل، وأبلج ولجلج).

وأما التورية: فقد لجأ إليها فى بعض رسائله وساعدته ثقافته ودرايته اللغوية على أن ينبغ فيها، ومن ذلك حديثه على لسان القلم فى رسالته (السيف والقلم)[3] وحواره القصصى فى رسالته النخلة[4]، وحواريته بين الزهور[5] ليعبر من خلال ذلك عن آرائه وما تمور به نفسه، وما يشغل خاطره من أفكار وآراء .

وهكذا يستطيع كل من يقرأ رسائل (ابن برد الأصغر) الإخوانية أن يدرك بهدى من فطرته النقية كيف طرز كلامه، ووشى أساليبه بألوان البديع المختلفة، مما يعين على إثارة الوجدان والشعور. وإحداث التناسب المعنوى ،والإيقاع الصوتى.

ولم تقف عنايته عند الاعتناء باللفظ بل وجدناه يجد فى إثراء بنائه الأسلوبى بكل المقومات التى تقربه من مدارات النظم ،فراح

(١)الذخيرة ق١ م١ / ٤٩٥ .
(٢) نفسه ق١ م١ / ٤٩٦ .
(٣) انظر الذخيرة ق١ م / ٥٢٣ ـ ٥٢٨ .
(٤) نفسه ق١ م١ / ٥٢٨ ـ ٥٣١ .
(٥) نفسه م٢ ق١ صـ١٣٠ .

يتوكأ على التراث والتعالق النصى موظفا إياه توظيفا سديدا تعضيدا للفكرة، وتقوية للصورة، وتأثيرا فى المتلقى.

التعالق النصى أو التناص:

وهو "أن يتضمن نص أدبى ما نصوصا أو أفكارا أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافى لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلى وتندغم فيه ليشكل نص جديد واحد متكامل"(١).

وتعتمد هذه التقنية على إلغاء الحدود بين النص والنصوص أو الوقائع أو الشخصيات التى يضمنها الشاعر نصه الجديد .حيث تأتى هذه النصوص موظفة ومذابة فى النص، فتفتح آفاقا أخرى دينية وأدبية وتاريخية عدة، مما يجعل من النص ملتقى لأكثر من زمن، وأكثر من حدث، وأكثر من دلالة، فيصبح النص غنيا حافلا بالدلالات والمعانى.

فكل نص هو إناء يحوى بشكل أو بآخر أصداء نصوص أخرى، ولا شك أن الأديب يتأثر بتراثه وثقافته ويبنى عليها أدبه.

وابن برد الأصغر ــ مثله مثل كتاب عصره ــ تركت ثقافته الأدبية، وسعة اطلاعه أثرا واضحا على نثره الفنى وبخاصة رسائله الإخوانية، فجاءت مشعة بالروافد التراثية التى تضمنتها، ومن هذه الروافد: القرآن الكريم،والحديث النبوى الشريف، والشعر العربى، والأمثال ، والإشارات التاريخية .

القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف:

اقتبس ابن برد الأصغر من القرآن الكريم ونهل من معينه قاصدا تزيين أسلوبه وإضفاء طابع الرونق والجزالة على كلامه، وقد بين ابن الأثير الغاية من الاقتباس من القرآن فى الترسل فقال: "إذا

(١) التناص نظريا وتطبيقيا د/ أحمد الزغبى صـ١١ مؤسسة عمون الأردن ط ثانية سنة ٢٠٠٠ .

ضمت الآيات فى أماكنها اللائقة بها، ومواضعها المناسبة لها، فلا شبهة فيما يصير للكلام من الفخامة والجزالة والرونق"[1]، "فإن الآية الواحدة تقوم فى بلوغ الغرض، وتوفية المقاصد، ما لا تقوم به الكتب المطولة، والأدلة القاطعة"[2].

وهذا ما ابتغاه (ابن برد الأصغر) حين بدأ مناظرته بين السيف والقلم على لسان القلم بآيتين قرآنيتين، تباهيا وتفاخرا بمنزلته فقال: "والأفضل من فضله الله ــ عزوجل ــ فى تنزيله مقسما به لرسوله. فقال: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[3] وقال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾[4] مجل من مقسم وعز من قسم"[5].

وهذه الطريقة فى كيفية الاستفادة من النص القرآنى يسميها البلاغيون "الاقتباس" "وهو أن يضمن الكلام شيئا من القرآن ولا ينبه عليه"[6] وهو أكثر ما يكون فى الكلام، لأنه يشى بمقدرة الكاتب فى البلاغة، وبراعته فى وضع الآية ضمن سياقها دون نشاز وإخلال بتأليف الكلام .

ويتوسل (ابن برد الأصغر) بمحاكاة الأسلوب القرآنى واستعارة عباراته وألفاظه ، وطرق تعبيره، ومن ذلك قوله فى رسالته (النخلة): "فأما نحن فرسمنا تلك العدة فى سويداوات قلوبنا.. وأما

(١) صبح الأعشى للقلقشندى ١/ ٢٣١ ط دار الكتب العلمية بيروت ط١/ ١٩٩٣م.
(٢) نفسه ١/ ٢٣١ .
(٣) سورة القلم آية ١ .
(٤) سورة العلق آية ٤ .
(٥) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٤ .
(٦) صبح الأعشى للقلقشندى ١/ ٢٣٧ .

أنت فهلت عليها التراب .. حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وازينت وبلغت غايتها ... أبت إليها أيابة الأسد بفريسته.."(١).

وهو هنا يستلهم ويستمد من قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢).

وقوله أيضا: "فجئناه لنأكل منها وتطمئن قلوبنا، ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين"(٣).

مستمد من قوله تعالى على لسان حوارى عيسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(٤).

وقوله أيضا من رسالته (البديعية فى تفضيل أهب الشاء على ما يفترش من الوطاء) مدافعا عن هذه الأهب وعظم منزلتها عند من يعزف عن زخارف الدنيا: "ولم يجعل الله عزوجل من هذا الجنس أقرب قربان فدى به ابن خليله، وسماه ذبحا عظيما فى تنزيله، إلا لسر من فضله سبق فى علمه"(٥).

مستمدا عباراته من قوله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾(٦) مما ينبئ عن إعجاب ابن برد بأسلوب القرآن، وتأثره به، ورغبته بمحاكاته، ولا يتهيأ ذلك إلا لمن استحوذ القرآن على فؤاده، وترسخ فى ذهنه، وأخذ بمجامع قلبه.

---

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٩ .
(٢) سورة يونس آية (٢٤).
(٣) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٩ .
(٤) سورة المائدة آية : ١١٣ .
(٥) الذخيرة ق١ م١ / ٥٣٣ .
(٦) سورة الصافات آية: ١٠٧ .

أما من حيث تأثره بالحديث النبوى الشريف، فقد كان مقلا فى هذا الموضوع لدرجة أننى لم أعثر له إلا على حديث واحد فى تضاعيف رسالة (النخلة) ، وجاء نصه: "نعمت العمة لكم النخلة"[1] فى معرض كلامه على لسان رفاق لصديقهم البخيل الذى لم يف بعهده ولم ينجز وعده: "فلعن الله الشيطان وأعاذنا منه. وصلى الله على محمد ولا صدنا عنه، فإنه يقول: (نعمت العمة لكم النخلة) ، والخطاب لجميع المسلمين، وأنت قد استوليت على عمة من عماتهم تستبد بخيرها دونهم.." [2].

وجاء الاستشهاد بهذا الحديث ليدعم حجته،ويؤكد صحة مذهبه وسلامة رأيه، "ويبنى كلامه على أصل لا يزلزل، ويسوق مقاصده إلى سبيل لا يضل عنه، فإن الدليل على المقصد إذا استند إلى النص قويت فيه الحجة، وسلم له الخصم، وأذعن له المعاند، والبلاغة إذا طلبت غايتها فإنها بعد كلام الله فى كلام من أوتى جوامع الكلم"[3].

الشعر:

لم تزل رواية الشعر، وإظهار المحفوظ منه دليلا على التضلع واتساع المعرفة، وقد كان (ابن برد الأصغر) من الأدباء الذين عنوا بأشعار العرب، وتمثلوا بها فى رسائلهم، فضلا عن استلهامه معانيها، واقتباسه من أفكارها؛ لأن الكاتب إذا أكثر "من الأشعار وتدبر معانيها، ساقه الكلام إلى إبراز ذخيرة ما فى حفظه منها، فاستعملها فى محلها، ووضعها فى أماكنها، على حسب ما يقتضيه الحال فى إيرادها واقتباس معانيها"[4].

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى١/٢٣٢ت محمد عبدالرؤوف المناوى ط دار طائر العلم –جدة.

(٢) الذخيرة ق١ م١/ ٥٣١ .

(٣) صبح الأعشى ١/ ٢٤٣ .

(٤) صبح الأعشى ١/ ٣٢ .

وقد وشح ابن برد الأصغر بعض رسائله بأشعار العرب، فأضفى على أسلوبه رونقا وبهاء، ومنحه نقدا إيمائيا وفنيا، ومن ذلك ما جاء به على لسان البهار فى حواريته بين الزهور متمثلا قول الخنساء فى قوله:

"لا تنظرن على غضارة منبتى ونضارة ورقى، وانظر إلى وقد صرت حدقة باهتة، تشير إليه، وعينا شاخصة تندى بكاء عليه:

ولولا كثرة الباكين حولى .·. على إخوانهم لقتلت نفسى"(١)

وقوله فى رسالة النخلة متمثلا بأبيات لأبى الغفار الرياحى، يتحدث فيها عن الأطوار المختلفة للنخل، فيقول:

"ولعلك تحب أن تسمع شيئا من منظوم الكلام فى النخل يذيب من جمودك ويولد عقيم جودك، فالمنظوم خداع بحسنه، مستميل بطنه، أنشد الأصمعى لأبى الغفار الرياحى:

غدت سلمى تعاتبنى وقالت .·. رأيتك لا تريغ لنا معاشا
فقلت لها أما تكفيك دهم .·. إذا أمحلت كن لنا رياشا(٢)

وهنا تبدوا مهارة(ابن برد) فى التمثل بالشعر واضحة، من حيث وضعه البيت ضمن سياقه الدلالى الدقيق المتناسب مع المعنى، وتوشيح أسلوبه فى التعبير بحلية النظم، ثم دقته فى اختيار البيت واستدعائه، فجاءت رسائله أكثر امتعاعا، وأعظم إثارة، وأبلغ معنى.

ولم يقف اهتمام ابن برد بالتمثل بالشعر فى رسائله عند هذا الحد بل توسل بحل معقود الشعر، وضمنه رسائله ومن قوله على لسان السيف فى رسالته بين السيف والقلم، مقللا من شأن القلم:

"وجه لئيم، وجسم سقيم ... وجوف لم يتخضخض فيه قلب، أوحش

---

(١) الذخيرة ق٢ م١ / ١٢٩، والبيت للخنساء ،الديوان صـ٤٥ ط دار صادر بيروت.

(٢) نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى١١/١١١- الذخيرة ق١ م١/ ٥٣١.

من جوف العير"[1] حيث ذهب ابن بسام أنه محلول من قول امرئ القيس: "وواد كجوف العير قفر قطعته.." [2] .

وقوله فى وصف القلم "فساد القلم خدر فى أعضاء الخط".

قال ابن بسام، وهذا محلول من قول القائل حيث يقول:

مَنْ خَطَّ يوماً ببَرْيَةٍ فسدتْ ∴ أصابَ أعضاءَ خطِّهِ خَدَرُ"[3]

وبما ان (ابن بردالأصغر) قد جمع بين الشعر والنثر مثله فى ذلك مثل كتاب عصره، فقد طغت ملكته الشعرية على نثره، خيالا، وتصويرا وأشعارا، ومن ذلك تضمينه رسالته فى المناظرة بين السيف القلم بعضا من أشعاره التى تدل على ميله الخفى لطبقة الكتاب مذيلا رسالته بقوله على لسان القلم:

قد آنَ للسيفِ ألاّ يفضِلَ القلما ∴ مذ سُخِّرا لفتى حاز العُلى بهما
إن يُجتنى المجدُ غضّاً من كمائمه ∴ فإنما يُجتنى من بعض غرسهما
ما جاريا أمَلاً فواقيا أمَداً ∴ إلا وكانتْ خِصالُ السّبق بينهما"[4]

فاعتماد الشعر فى الرسائل "والاستشهاد به، ظاهرة قديمة عرفت من قبل، إذ كانت الرسائل تحكى بالأشعار، وتزين بالمقطعات، لما يتميز به الشعر من إثارة المشاعر، وتأجيج العواطف، وكأن الكتاب شبهوا الرسائل بالخطب، التى طالما اتخذت منه وسيلة للإقناع والتأثير، فساروا على هذا النهج، ولم يروا إحراجا فى تضمين الشعر رسائلهم"[5].

---

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٦ .
(٢) نفسه ق١/م١/٥٢٦.
(٣) نفسه ق١ م١ / ٤٩٦ .
(٤) الذخيرة ق١ م١ / ٥٢٨ .
(٥) الرسائل السياسية فى العصر العباسة الأول د/ حسين بيوض صـ١٨٧ منشورات وزارة الثقافة دمشق سنة ١٩٩٦م.

الأمثال :

ضمن (ابن برد الأصغر) رسائله مجموعة من الأمثال العربية باعتبارها من الروافد التراثية التى أثرت نسيجه اللغوى فى رسائله، مما يدل على شغفه بها، وإعجابه بطريقة صياغتها، والمعانى التى احتوتها إذ إنها "كلمات مختصرة تورد للدلالة على أمور كلية مبسوطة"(١).

والغاية من تضمين المثل تكمن فى غزارة المعانى وكثافتها وتزيين الكلام وزخرفته، "فالأمثال هى وشى الكلام، وجوهر اللفظ. وحلى المعانى ... فهى أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شئ كسيرها، ولا عم عمومها، حتى قالوا: أسير من مثل"(٢).

ومن المواقف التى ظهرت فيها عبقرية (ابن برد)فى حسن توظيفه للمثل ــ فى مناظرته بين السيف والقلم ــ توظيفا لا يمكن فصله عن السياق الأسلوبى، ومن ذلك:

ما جاء على لسان السيف قائلا : "استنت الفصال حتى القرعى"(٣)، ورب صلف تحت الراعدة"(٤)، فيرد القلم فى نفس المعنى: "من ساء سمعا ساء إجابة"(٥)، فيرد السيف بأسلوب فيه حدة: "جعجعة رحى لا يتبعها طحن، وجلجلة رعد لا يليها مزن"(٦).

---

(١) صبح الأعشى ١/ ٣٤٧ .

(٢) نفسه ١/ ٣٤٧ .

(٣) مثل يضرب للذى يتكلم مع من لاينبغى أن يتكلم بين يديه.مجمع الأمثال للميدانى ١/٤١١ت سعيد محمد الفحام .

(٤) الصلف قلة النذر والخير،والراعدة السحابة ذات الرعد،ويضرب للبخيل مع الوجود والسعة. مجمع الأمثال للميدانى ١/٣٦٤.

(٥) مجمع الأمثال ١/١٩٨.

(٦) يضرب لمن يعد ولايعطى.مجمع الأمثال ١/٢٠٢.

فيرد القلم بأسلوب مماثل فيه شئ من العنف والثقة بالنفس "إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا"[1] "ما كل بيضاء شحمة ولا كل سوداء تمرة".[2]

وهذه الأمثال التى ساقها ابن برد فى رسالته تحمل فى طياتها الكثير من المعانى، المعبر عنها فى ثوب من المجاز والخيال، مما أضفت على أسلوبه قيمة فنية عالية، تهش له الأسماع ، وتنشد له العقول والقلوب معا.

أما الإشارات التاريخية: التى تستدعيها ذاكرة الكاتب لتدعيم حجته، وتقوية نسيجه اللغوى والأسلوبى، فقد كان(ابن برد)مقلا منها فلم ترد فى رسائله الإخوانية إلا إشارة إلى شخصيتين :إحداهما سياسية: وهى شخصية الصحابى الجليل (عبدالله بن الزبير) حينما قال قولته المشهورة إلى أحد عماله على وادى القرى عندما خالف أمره: "أكلتم تمرى وعصيتم أمرى"[3] ، فوظفها ابن برد فى نثره فى رسالته النخلة قائلا على لسان رفاقه إلى صاحب النخلة: "ولا تخش منا ما أفسد به ابن الزبير عماله حين قال لهم "أكلم تمرى وعصيتم أمرى"[4] فجاءت العبارة فى موقعها السليم، مؤكدة حرص رفاقه على الكدية والإلحاح فى الطلب.

أما الشخصية الثانية: فهى شخصية الجاحظ التى وظفها (ابن برد) بدقة متناهية ،ووضع مناسب فى السياق الأسلوبى ،عندما طلب رفاقه من صاحب النخل أن يمجدهم رطبا، فيمجدوه خطبا، وما قاله الجاحظ فى نخل الدنيا، فيقول: "فيا أبا عبدالله أمجدنا رطبا نمجدك

---

(١) يضرب للمدل بنفسه إذا أصلى بمن هو أدهى منه وأشد.مجمع الأمثال ١/٤٨.
(٢) يضرب فى موضع التهمة.مجمع الأمثال ١/٣٣٠.
(٣) مجمع الأمثال ١/١١٠ .
(٤) الذخيرة ق١ م١ / ٥٣٠ .

خطبا ... إذا أنت فعلت فكلفنا فيها خاصة ما تكلفه عمرو بن بحر الجاحظ فى نخل الدنيا عامة نأتك به، ونربى فيه عليه"[1] .

وعلى كل فلقد تلون بناؤه الأسلوبى فى أداء التراكيب حسب ما يقتضيه معيار أداء المعانى ، وعرض الأفكار، مما يدل على ثقافته الواسعة، وقدرته على توظيف الأساليب فى سياقها الدلالى الدقيق .

(١) الذخيرة ق١ م١/ ٥٣١ .

ثانيا : "البناء التصويرى"

الصورة الأدبية "هى وسيلة لاستنفاد طاقة الحس والخيال المصاحب للتجربة الشعورية القوية، وهى الطاقة الفائضة عن التعبير اللفظى المجرد"(١).

ولها وظيفة الدلالة على المعانى الفائقة للعادة، تلك المعانى المرتبطة بالنشاط الروحى للإنسان، وهى وظيفة شاقة بسبب محاولة الصورة الإحاطة بأشياء لا يحاط بها(٢).

وبالنظر فى رسائل (ابن برد الأصغر) نجد أن التعبير بطريقة التصوير أداة فاعلة فى أسلوبه، وأن إعمال الخيال فيه يدل على مقدرة بلاغية عالية، ومهارة بيانية راقية، وثقافة موسوعية. تنثال على فكرة المعانى والصور فيصوغها فى قالب فنى بديع، وأسلوب أدبى باهر، يبالغ فى تدبيجه وتنميقه ، حتى يصل إلى الغاية منه .

وقد تنوع البناء التصويرى فى رسائله الإخوانية ، فجاءت صوره بين التقليدية، والطريفة المبتكرة، والتشخيصية ،والرمزية .

فمن صوره التقليدية التى استند فيها على الوسائل التقليدية لبناء الصورة كالتشبيه، والاستعارة ،والكناية ، والمجاز، وإن كان الاعتماد على التشبيه فيها أكثر ، مثل قوله لصديق له يحضه على الزيارة:" البدر صنوك، والشمس تربك "(٣).

وقوله فى مدح الإخاء: "آراؤه كالمرائى إذا جليت، والسيوف إذا انتضيت"(٤) فقد عبر عن المعانى النفسية تعبيرا تصويريا جميلا،

---

(١) النقد الأدبى أصوله ومناهجه سيد قطب صـ٦٤ .

(٢) مدخل إلى دراسة المعنى بالصورة فى الشعر الجاهلى د/عبدالقادر الرباعى صـ٨٣ ـ المجلة العربية للعلوم الإنسانية . الكويت عدد٦، مجلد ٢ سنة ١٩٨٢م.

(٣) الذخيرة ق١ م١ / ٥٠٢ .

(٤) الذخيرة ق١/م١/٥٠٤ .

حيث جعل الأخوة النافعة بين الأصدقاء ناصعة بيضاء يسرى كل منهما فيها الآخر .

وفى المقابل جعل فساد الأخوة وعدم الإخلاص بين المحبين بمن يتصف بهذه الأشياء ، متكئا على منحى تصويرى نفسى يعبر عما فى أغوارها فى هذه الحالة،فيقول:

"مطحلب الوجه، مهراق ماء الحياء، مظلم الخلق. دبورى الريح مقشعر الوجه "[1] .

ثم يصور توالى العتاب بين الأصدقاء بفساد كما يفسد الزرع توالى الماء فيقول: "فأما إذا أعيد وأبدى، وردد وولى، فإنه يفسد غرس الإخاء كما يفسد الزرع توالى الماء"[2].

فجاءت صورد متتابعة تصور عاطفته ــ تجاه صديقه الخائن والمعاتب ــ أبلغ تصوير فى لفظ وجيز، وفنى بديع .

ويقترب فى كثير من تشبيهاته من الخيال الشعرى كقوله على لسان السيف: "أكرع يوم الوغى فى لبة البطل، فأعود كالخد كسى صبغ الخجل، كأنما اشتملت بالشقيق، أو شربت ماء العقيق"[3].

وقوله أيضا من رسالة النخلة مصورا جمال رطبها الذى هو أحلى من شفاه العذارى، وعطف الطائر عليه فى مقابل بخل صاحبها: "فإذا رأت الطير وهى على سعفها ما أواصل إليها من لحظاتى ... رمتنى بأفراد من رطبها أحلى من شفاه العذارى"[4].

ومن صوره الاستعارية قوله: " أحلب الغنى من ضروعه، وأجتنى الندى من فروعه.." [5].

---

(١) الذخيرة ق١م١/٥٠٤

(٢) نفسه ق١ م١/ ٥٠٢ .

(٣) نفسه ق١ م١ / ٥٢٦ .

(٤) الذخيرة ق١ م١/ ٥٢٩ .

(٥) نفسه ق١ م١ /٥٢٤ ، ٥٢٥ .

ومن صوره الكنائية قوله فى عتاب صديق لم يحفظ العهد ويخلص الود: "أظلم لى جو صفائك، وتوعرت على أرض إخائك، وأراك جلد الضمير على العتاب، غير ناقع الغلة من الجفاء..." (١).

وفى رسالة النخلة يكنى عن بخل صاحبها بأسلوب تصويرى رائع قائلا: "وأبت إليها إباية الأسد بفريسته، وتحكمت فيها تحكمه على عنيزته"(٢).

ومن حسن توظيفه للصور المجازية التى جعلت نثره أقرب إلى البناء الشعرى قوله من رسالته السيف والقلم، مبرزا قيمة كل منهما: "وإن السيف والقلم ... وسيلتين يرشفان العلى فم عاشقها ... جررا أذيال الخيلاء تفاخرا، وأشما بأنف الكبرياء متنافرا"(٣).

ومن صوره الطريفة المبتكرة التى كان لذوقه وملكته الشعرية فيها أثر كبير قوله على لسان القلم: "فأقصر عن جفنك من العمى رواقا، يسفر البلاء لك عن قضيب عاج، ولسان سراج، وقدح ورق جلل بالعقيان، وحلة نرجس فوق جسم أقحوان، لليل فى فوديه لطخ، وللمسك فى صدغيه نضخ، أتجلى عن المهارق انجلاء الغمام عن الحدائق"(٤).

فهذه صور طريفة مبتكرة جاءت موشية بالظلال والألوان عبر فيها(ابن برد) عن قيمة القلم وجعله مجمعا للبهجة والجمال، فهو قضيب، ولسان سراج، وقدح ذهب قد حلى بالعقيان، وحله نرجس فى فوديه ليل، وفى صدغيه مسك نضخ، يترك أثره الجمالى فى المهارق، كما يفعل المطربالحدائق.

(١) الذخيرة ق١ م١ /٥٠١ .
(٢) نفسه ق١ م١ / ٥٢٢ .
(٣) نفسه ق١ م١ / ٥٢٦ .
(٤) نفسه ق١م١/٥٢٦ .

ومن صوره المبتكرة ــ أيضاــ التى ساقها فى ظلال الطبيعة ورحابها، وصفه لمجلس أنس فى وقت الشتاء حالت الطبيعة بوجهها المكفهر، وثلجها المتواصل، وبردها الشديد دون عقده: "وقد راعنا اليوم باكفهرار وجهه، وما ذر من كافور ثلجه، فادرعنا له بالستور، وانغمسنا فى جيوب الستور" ثم يصور بدقة ما يحدث فى هذه المجالس من وسائل المتعة والشراب: "وأجرينا لبنات الكروم خيلا شقراء، وأحببنا أن تشهد جيش الشتاء كيف يهزم، وأنفاس البرد كيف تكظم"(١).

فالشاعر قد أحاط الصورة بخياله الخصب فجعل وجه اليوم مكفهرا ،وكافوره ثلجا مذرا، فادرع بالستور، وانغمس فى جيوب السرور، ثم أضاف إليها الطرافة والجدة، بأن جعل جيش الشتاء يهزم وأنفاس البرد تكظم ، بخيل الكروم الشقراء، وبهذا أكسب صورته الجدة والابتكار والطرافة.

أما صوره التشخيصية التى كان للخيال دور كبير فيها لإثراء البناء الفنى لرسائله الإخوانية فجاءت حية نابضة بالحركة والحيوية، مضفيا عليها من مشاعره وأحاسيسه، ومن ذلك قوله فى العتاب بين الأصدقاء وكيف أن القلم والقرطاس والفكر قد تأثروا بهذا الموقف، فجعل للقلم أنفا راغمة، وللقرطاس أحشاء منزوية، وللفكر فم قد أخرس، فيقول فى تصوير رائع يجسد مدى حرصه على الكتاب إليه رغم ما يعانيه من أدواتها حرصا على هذه الصداقة : "لا أستبد ــ أعزك الله ــ من الكتاب إليك، وإن رغم أنف القلم، وانزوت أحشاء القرطاس. وأخرس فم الفكر: فلم يبق فى أحدهما إسعاد لى على مكاتبتك"(٢).

(١) الذخيرة ق١ م١/ ٥٠٣ .
(٢) نفسه ق١م١/ ٥٠١ .

وفى رسالته بين السيف والقلم يمنح الجامد صفات الحى، ويجعل من المعنوى محسوسا، فيضفى عليهما صفات إنسانية، حيث جعل للجدال قناعا يكشفه، وللخصام ذراعا يمدها وقت الدفاع، وللإباء عطفا يهزه فى حينه، فيقول:

"وحين كشف الجدال قناعه، ومد الخصام ذراعه. وهز الإباء من عطفه، وأشم الأنف من أنفه، قاما يتباريان فى المقال، ويتساجلان فى الخصال "[1].

وكان للطبيعة الأندلسية دور كبير فى تشكيل صوره التشخيصية، فراح يوظفها فى رسائله، ويعقد معها مشاركة وجدانية، ويضفى عليها من مشاعره وأحاسيسه، مما يجعلها تشاركه أفراحه وأتراحه.

ومن ذلك وصفه ليوم ممطر جاء موافقا لزيارة أصدقائه : "اليوم يوم بكت أمطاره، وضحكت أزهاره، وتقنعت شمسه وتعطر نسيمه"[2] فقد تمثل فى صوره كل ما تحمله الطبيعة بين جوانحها من معان جميلة، ومشاعر رقيقة، وكانت أدواته فى رسمها الاستعارة المكنية ، واللفظ الموقع، والجرس الرقيق، مما يجعل الصورة أوقع فى النفس وأحفل بالفكر.

ويصف ليلا يكون حريا بالتزاور بين الأصدقاء بعيدا عن الوشاة والرقباء، فيجعله ليلا أسودا سدل حجابه، وظهر غرابه، وتبدل ضياؤه بظلامه، وتلبدت كواكبه بسحائبه، فيقول: "الزيارة فى الليل أخفى، وبالزائر والمزور أحفى، وقد سدل حجابه، ووقع غرابه، وتبرقعت نجومه بغيومه ، وتلفعت كواكبه بسحائبه..." [3] فجاءت

(١)الذخيرة ق١ م١/ ٥٢٤ .
(٢) نفسه ق١ م١/ ٥٠٢ .
(٣) الذخيرة ق١ م١/

صورة متكئة على الخيال التشخيصى التجسيدى، مما جعلنا نشعر بما شعر ونحس بما أحس.

ولم يقف (ابن برد الأصغر) فى صوره عند التقليد، والطرافة. والتشخيص والتجسيد، وإنما تعدى بها إلى الصورة الرمزية التى تفصح عن مخبوء نفسه، ومكنون أفئدته، "إفصاحا غير مباشر قائما على الإيحاء للمضمون العاطفى والفكرى خلف اللفظ المستعمل كرمز"[1] حتى تتحقق المتعة والطرافة والجمال فى نفس المتلقى.

ومن صوره الرمزية القائمة على الإيحاء المعبر، الذى تشع منه الطرافة والجمال ما جاء فى رسالته الحوارية "المفاخرة بين الأزهار" متخذا من ذلك قناعا لرصد واقعه الاجتماعى، والبوح بما يختزنه اللاشعور من طموحات، وغايات نفعية.

حيث اتخذ من الورد رمزا لأميره أبى الوليد "بن جهور" ومقدما له على جميع الزهور/أمراء عصره، من خلال انتقاصها لنفسها أمام تفرده/الورد، إذ يقول: "إن فقد عينه لم يفقد أثره، وإن غاب شخصه لم يغب عرفه، وهو أحمر والحمرة لون الدم، والدم صديق الروح"[2] وبعد أن حكم لأميره / الورد ، بالتفرد، ينهى المجلس بعقد مبايعة الزهور مبايعة نهائية لا رجوع فيها، لأميره /الورد ،وتعلن رفضها لكل زهر أو نور لا يقبل هذا العقد، فيقول بأسلوب تصويرى إيحائى رمزى: "أخلصت له، وعرفت أنه أميرها المقدم، واعتقدت له السمع والطاعة، والتزمت له الرق والعبودية .... فأية زهرة قضى عليها لسان الأيام هذا الحلف فلتعرف أن رشادها فيه، وقوام أمرها به"[3].

---

(١) الأدب وفنونه د/محمد مندور صـ٣٩ دار نهضة مصر للطباعة والنشر سنة ١٩٧١م.

(٢) الذخيرة ق٢ م١ / ١٢٨ .

(٣) الذخيرة ق٢ م١ / ١٣٠ . ــ انظر أدب الرسائل فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى صـ٢٠٥ .

وكذلك فى رسالته "المناظرة بين السيف والقلم" تكمن الصورة الرمزية الإيحائية التى رمز من خلالها إلى رصد جانب من جوانب الصراع الخفى بين المنتمين لدولتى (السيف والقلم / الجند والكتاب) بالأندلس فى ذلك الوقت، والإفصاح من طرف خفى عن أمنيته فى المساواة بين الدولتين باعتبارهما رمزين للقوة المادية والمعنوية. بعد أن تقدم الجند عليهم فى المرتبة والمكانة فى ظل مجاهد العامرى خاصة، وفى عصر الطوائف عامة[1].

وفى رسالته (البديعة فى تفضيل أهب الشاء على ما يفترش من الوطاء) نلحظ أن الموقف الساخر الذى سلكه فى صياغتها يخفى خلفه بعدا رمزيا أكثر جدة فى دفاع مستميت عن طبقة المعلمين الذين يستخدمون هذه الفرش، حيث يقول مخاطبا صاحبه: "وأخاف عليك ـــ شحاً بك ـــ أن تستقبل بذم هذه الأهب كل مفترش لها ، مغتبط بها، فلا تجده إلا شيخا رائع الوسامة، أبيض الشعرة "[2] .

وكأنه يرد ردا عنيفا مدعما بالحجة الدامغة على كل من انتقص در المعلمين،وقلل من قيمة علمهم كما فعل ابن شهيد(ت٤٢٦هـ)[3] تجاه المعلمين فى رسالته (التوابع والزوابع) ورسمه لهم صورا هزلية ساخرة تدعوا إلى الامتهان والاحتقار، والاتصاف بالغباء[4].

وكما اعتمد (ابن برد الأصغر) فى صوره الرمزية على الإيحاء اعتمد كذلك على تراسل الحواس فيما بينها "فيعطى للأذن وظيفة

---

(١) انظر الرسالة كاملة . الذخيرة ق١ م١/ ٥٢٣ ـــ ٥٢٨، وقد سبق التحليل النقدى لها – الرسالة الأدبية فى الأندلس صـ١٢٥ .

(٢) الذخيرة ق١ م١/ ٥٣٥.

(٣) أبوعامر أحمد بن شهيد الأندلسى أرسخ أهل الأندلس قاطبة بالأدب له رسالة هزلية تسمىالتوابع والزوابع (ت ٤٢٦هـ).المطرب لابن دحية صـ١٦٦.

(٤) الذخيرة ق١ م١/ ٢٣٩ .

العين فتسمع ألوانا من الأصوات ، ويعطى للنظر ما للمس، وهكذا يصير المسموع لونا والملموس مرئيا"[1] حتى تكمل أداة التعبير بنفوذها إلى نقل الأحاسيس الدقيقة[2] ومن ذلك قوله فى وصف القلم: "ما أعجب شأن القلم يشرب ظلمة، ويلفظ نورا"[3] فقد استعار ابن برد للفم ما للعين، فتخيل الظلمة وهى من مدركات الإبصار شرابا يشرب. وما يلفظه القلم جعله نورا، مدعيا فيه الحقيقة فى جمال واضح. وسحر أخاذ.

وهكذا جاءت صورة معبرة عن خلجات نفسه، ومشاعره الخفية، فهى تظلل كثيرا من حياته، وتشف عن سلوكه الروحى ومنهجه النفسى.

وهذا لا يصدر إلا عن موهبة فذة، وصفاء خاطر، ومدارسة للعلوم بشتى ألوانها، والتى من شأنها تقويم السان، والإجادة لملكة التصوير والبيان.

(١) النقد الأدبى الحديث د/ محمد غنيمى هلال صـ٣٩٦ .
(٢) نفسه صـ٣٩٥ .
(٣) الذخيرة ق م١ / ٤٩٦ .

البناء الإيقاعى

من المعلوم أن النثر أحد جناحى الأدب، وهو قسيم الشعر، ويشترك معه فى بعض أساسيات جماليات الإبداع الأدبى، وهى الموسيقى أو الإيقاع.

ويتفق نقاد العرب على ضرورة الموسيقى (الإيقاع) فى النثر كما كانت فى الشعر وفى ذلك يقول الثعالبى فى رسائله: "فأما الشعر فهو الكلام المقفى الموزون قصدا على وجه كونه نظما، وأما النثر فمنه المسجع الذى يؤتى به قطعا متساوية، أو متفاوتة ويلتزم فى كل كلمتين فأكثر منه قافية واحدة، وقد يؤتى فى أربع فقر بقافيتين قافية للأول والثالث، وقافية للثانى والرابع إلى غير ذلك من أنواعه ويسمى سجعا"(١).

"ومنه المرسل: وهو الذى يطلق فيه الكلام إطلاقا ويقطع أجزاء لكن لا يقيد بقافية"(٢).

وبالنظر فى نثر (ابن برد الأصغر) الإخوانى نجده قد اهتم به اهتماما بالغا، وعنى به عناية فائقة من الناحية الإيقاعية، وقد تبلور ذلك فى استناده إلى السجع والازدواج تارة، وعدم الاستناد إليهما تارة أخرى، وذلك من خلال حسن توظيفه للمفردات والجمل وما توحى به من إيحاءات صوتية، أو انسجام بين المقاطع.

والسجع هو "تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد"(٣).

ويراه ابن وهب من أوصاف البلاغة "فى موضعه، وعند ساحة القول به، وأن يكون فى بعض الكلام لا فى جميعه، فإن السجع فى الكلام كمثل القافية فى الشعر"(٤).

---

(١) رسائل الثعالبى صـ١٤١ ط بيروت.
(٢) نفسه صـ١٤٢ .
(٣) المثل السائر لابن الأثير ١/ ١٩٣ .
(٤) البرهان فى وجوه البيان صـ٢٠٩ .

فلا غرو أن نجد (ابن برد) يقصد إليه، بيد أنه قصد الفنان المتمرس بصفته، غير المتكلف لها، فسجعه قريب من الطبع، يمتاز بالخفة والرشاقة، وعذوبة اللفظ، وجمال الإيقاع، وحلاوة النغم، إذ يقول فى رسالته بين السيف والقلم: "إن التسابق من جوادين سبقا فى حلبة، وقضيبين نسقا فى تربة، والتحاسد من نجمين أنارا فى أفق، وسهمين سارا على نسق، لأحمد وجوه الحسد، وإن كان مذموما مع الأبد.." (١).

فهو حريص هنا على السجع لإيجاد إيقاع نغمى باذخ الثراء، اعتمادا على اطراده بين الفواصل من ناحية، وما تولدد من إيقاعات صوتية نغمية داخل الأبنية كتردد حرف السين فى مفرداته فيما يشبه المفتاح الموسيقى لها فى الكلمات التالية :(التسابق، سبقا، نسقا، التحاسد، سهمين، نسق، الحسد).

كما أدت الجمل المتماثلة إيقاعا إلى خلق جو نغمى أثرى من موسيقيتها مثل قوله(٢): (سبقا فى حلبه، نسقا فى تربه) ، و(أنارا فى أفق، صارا على نسق) وهذا يرجع إلى موهبته الشعرية التى بدا أثرها واضحا فى نثره إيقاعيا.

ويعتمد أيضا فى بنائه الإيقاعى على الازدواج لما له من أثر فى تجميل العبارة وإثرائها بالإيقاع الموسيقى، وهو عند البلاغيين أن تكون كل فاصلتين فى النثر على قافية واحدة(٣).

و(ابن برد الأصغر) لم يتخذه معرضا للبراعة ومقصدا لبهر القارئ، بل اتخذه جلاء للمعنى فى الذهن، وتوكيده فى النفس، وتلوين التعبير وإغنائه بعنصر الإيقاع الموسيقى عن طريق خلق التوازن بين الجمل بتقسيمها إلى فقرات قصار متناسبة فى الطوال.

(١) الذخيرة ق١ م١/ ٥٢٣ .
(٢) الرسالة الأدبية فى النثر الأندلسى صـ١١٨ .
(٣) الصناعتين لأبى هلال العسكرى صـ١٩٩ .

متشابهة فى الأداء، بحيث يتجلى فيها عنصر التناغم الذى يقترب بملامح النثر إلى سماع الشعر، ومن هذا القبيل قوله فى عتابه لصديقه: "فلم يبق لى إسعاد على مكاتبتك، ولا بشاشة عند محاولة مخاطبتك، لقوارص عتابك، وقوارع ملامك التى قد أكلت أقلامك. وأغصت كتبك، وأضجرت رسلك، وضميرى طاو لم يطعم تجنيا عليك، ونفسى وادعة لم تجن ذنبا إليك، وعقدى مستحكم لم يمسسه وهن فيك"(١).

ثم يعدل عن هذا التعبير القائم على السجع والازدواج، ويطرحه طرحا يوحى بالانقطاع عنه تبعا لتنوع موضوعه وحالته النفسية. فيقول: "كثيرا ما يكون عتاب المتصافحين حيلة تسبر المودة بها.... كما يعرض الذهب على اللهب، وتصفق المدام بالفدام، وقد يخلص الود على العتب خلاص الذهب على السبك" ثم يرجع إلى ما كان عليه سابقا ساجعا ومزدوجا بين الفواصل دفعا للرتابة، وتجديدا للأنماط الأسلوبية فيقول: "فأما إذا أعيد وأبدى، وردد وولى، فإنه يفسد غرس الإخاء، كما يفسد الزرع توالى الماء"(٢).

بجانب هذه العناية الفائقة لابن برد بالإيقاع فى نثره نجده يؤثر فى بعض الأحيان أسلوب الترسل فى نثره بعيدا عن السجع والازدواج، حيث يؤثر الانطلاق فى الكتابة والتحرر فى التعبير، وهذا أمر طبيعى لكاتب يجعل المعنى نصب عينيه، فيرسل العبارات إرسالا بحيث تأخذ مداها لتغطى المعنى المراد ، ما دام اللفظ لديه وسيلة والمعنى غاية، ومن هذا القبيل قوله: "عهدى بك وصلتنا تفرق من اسم القطيعة، ومودتنا تسمو عن صفة العتاب ونسبة الجفاء. وتيزم هى آنس بذلك من الرضيع بالثدى، والخليع بالكأس، وهذه ثغرة إن

(١) الذخيرة ق١ م١/ ٥٠١ ــ ٥٠٢ .
(٢) الذخيرة ق١ م١/ ٥٠١ ــ ٥٠٢ .

لم تحرسها المراجعة، وتذك فيها عيون الاستبصار، توجهت منها الحيل على هدم ما بيننا..»[1].

وقوله أيضا فى رسالة النخلة : "فى النخل التى رزقنا الله كفاف من العيش كاف، وبلغة من القوت مقنعة، ثم أعظم من أمرها بدنو طعامها فى الجدوب، وصبرها لتصرف الليالى والأيام. وما ترى أرسل هذه الأبيات على ألسنتنا إلا شيطان قد شكا إليك عسرة فأثلته بسرة. فهو يحب إبقاءنا عندك»[2].

فهذا أسلوب مرسل يتسم بالتدفق واليسر والسهولة، ويترقرق فى النفس زهوا، ويلامس السمع بانسياب ورفق، وما ذلك إلا لغلبة الطبع عليه، وانحسار مظاهر التصنع عنه، وإذا كان ابن برد يعمد إلى الأسلوب المقيد بالسجع والازدواج حينا وإلى الأسلوب المرسل أحيانا فما ذلك إلا لدواع فنية استعان بها الكاتب فى رسائله، ولكل مقام مقال.

ويتطور البناء الإيقاعى فى الرسائل الإخوانية لابن برد الأصغر بما يتخذه من أطر جديدة لإثراء الإيقاع الموسيقى لنثره الإخوانى، وما لذلك من أثر قوى فى نفس المتلقى، فيلجأ إلى الأسلوب المتوازن الذى يقوم على تقسيم العبارات إلى مقاطع متوازنة، ومعادلة الألفاظ بعضها مع بعض، لتعطى إيقاعا موسيقيا من خلال التشابه فى الجرس الصوتى؛ إذ تزدوج أكثر من جملة أو عبارة فى تنسيق منتظم يتراوح بين الإطناب والإيجاز والمساواة، بحسب ما يقتضيه المقام، وهو شبيه بالسجع إلا أنه لا يتقيد بالتقفية، وقد يسمى لدى البلاغيين العرب بالسجع المتوازن، أو العاطل، أو الموازنة[3].

---

(١) الذخيرة ق١ م١/ ٥٠١ .
(٢) نفسه ق١ م١ / ٥٣١ .
(٣) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها أحمد مطلوب صـ ٦٠ مكتبة لبنان ط بيروت ط ثانية ١٩٨٨م.

وهو يقع مرتبة وسطى بين الأسلوب المسجع والأسلوب المرسل، وقد التزمه (ابن برد) فى قوله من رسالته بين السيف والقلم:

"لما كانا مصباحين/يهديان إلى القصد/من بات يسرى إلى المجد
وسلمين / يلحقان بالكواكب / من ارتقى ساميات المراتب
وشفيعين / لا يؤخر / تشفيعهما
ومجمعين / لا يفرق / تجميعهما
جررا / أذيال الخيلاء / تفاخرا
وأشما / بأنف الكبرياء / تنافرا"[1] .

ويبدوا من هذا الكلام "أن الألفاظ تتوازن لكن لا فى شكل سجع. بل فى شكل تقطيعات دقيقة"[2] تخلق نوعا من التموجات النغمية الكثيفة، تجعلها أقرب إلى البناء الشعرى وتؤكد أن ما يسمى بـ"قصيدة النثر" ليس أنموذجا جديدا وإنما كان له أصول فى النثر القديم، مما يشبه أنموذج ابن برد الأصغر بإيقاعاته النغمية. وتكويناته الصوتية[3].

وكأنى بابن برد يتخذ من ذلك وسيلة لتوشية أسلوبه بفنون الجمال المادى الذى يخلب لب سامعيه "كى يؤثر فى وجدانهم وعواطفهم، بجانب ما يؤثر به فى عقولهم من حجاجه وجدله، والتماسه للبراهين والأدلة على أفكاره"[4].

وقد يعمد (ابن برد الأصغر) إلى استخدام صيغة إيقاعية فى نثره الإخوانى ظلت حكرا على الشعر وخاصية من خواصه الموسيقية، وهى لزوم ما لا يلزم ــ بأن يحرص على زيادة حرف أو

(١) الذخيرة ق١ م١/ ٥٢٣ .
(٢) الفن ومذاهبه فى النثر العربى د/ شوقى ضيف صـ١٥١ .
(٣) الرسالة الأدبية فى النثر الأندلسى صـ١٢١ .
(٤) الفن ومذاهبه فى النثر العربى د/ شوقى ضيف صـ١٥١ .

حرفين فى قافية سجعه ـ مما يحدث أصداء موسيقية عالية، وترداد موسيقى يكون أوقع فى الذهن، وأليط بالقلب، وآكد فى النفس .

ومن ذلك قوله فى مدح أميره ابن معن الصمادحى: "حتى إذا أراد الله أن يحيى لهذه الصناعة رسما .. ولقى عثرة العلم مقيلها، ودولة الجهل مديلها، وتخوة الباطل مزيلها، وسوم الغباوة محيلها، وقداح البلاغة مجيلها.. "[1].

وعليه فقد جاءت رسائله الإخوانية متنوعة إيقاعيا وموسيقيا، حفاظا على الجرس اللفظى، وتنويعا للنغم الموسيقى، وتغزية النثر بعناصر الشعر المختلفة إيقاعا وتزيينا وتصويرا دون أن يقف ذلك عائقا فيما يريد التعبير عنه من أفكار، وما يريده من تصوير .

(١) الذخيرة ق١ م١ / ٤٨٩ .

الخاتمة

بعد هذه السياحة الممتعة بين رسائل ابن برد الأصغر الإخوانية أنماطا وبناء، وما تحمله من قيمة أدبية، وبراعة فنية، وعواطف نفسية شجية، يحسن بى أن أشير إلى أهم النتائج التى تمخض عنها هذا البحث إثر هذه السياحة، وتتمثل فيما يلى:

- اتخذ ابن برد الأصغر من بيئته الأندلسية صديقا وفيا يركن إليه فى أفراحه وأتراحه،وقد تقلب وجهها فى رسائله تبعا لمزاجه النفسى، وهذا واضح فى رسائل الوصف والعتاب والمدح والإخاء، والهجاء.
- عبرت رسائله الإخوانية عن وسائل المتعة والرفاهية التى كانت تزخر بها المجالس الأندلسية،وبذلك أصبح نثره الإخوانى يضارع الشعر فى موضوعاته، ويسير معه خطوة بخطوة، بل تفوق عليه فى بعض مظاهره.
- تطرقت أنماط نثره إلى مواضيع كانت حكرا على الشعر كرسائل المدح،لدرجة أنها أصبحت سمة من سماته ،وجاءت فى معظمها بعيدة عن المبالغة التى يمجها الذوق السليم، وإن كان فيها من مبالغات فقد جاءت عفو الخاطر من باب إشاعة الفضائل.
- جاءت رسائله فى العتاب رصينة تعبر عن شخصيته التى تفخر بنفسها ، وترفض التدنى والسقوط.
- استطاع ابن برد ببراعته الأدبية نقل المناظرات الخيالية من المنحى الشعرى إلى المنحى النثرى نظرا لرحابة النثر، وبعده عن النظم الذى يحول فى كثير من الأحيان عما يريده الشاعر المبدع.
- جاءت رسائل المناظرات فى نثره الإخوانى تحمل فى طياتها تأويلا يحمل أبعادا سياسية واجتماعية وفكرية ،وتصور مرحلة من مراحل الصراع الطبقى الكامنة تحت الرماد فى عصره.

- استخدم فى هذه الرسائل المناظراتية أسلوب المناطقة القائم على الحجة والحوار تدعيما للرأى،وإقناعا للخصم،وإظهارا لميله الخفى لطبقة الكتاب،والدفاع عن النظرة الدنيا لهم فى أعين الجند ،واستخفافهم بواقعهم الاجتماعى.
- توسل بالجانب الفكاهى فى رسالته النخلة الذى يقترب من مدارات السخرية الفكهة آنذاك، ويعبر عن معانى الكدية والإلحاح فى الطلب،كرد فعل ثقافى ممثلا فى المقامة المشرقية وأثرها فى أدب الأندلس.
- ألبس التافه من الأمور ثوب الجد والوقار بتصيد العلل والتبريرات كما جاء فى رسالته البديعة.
- اتسمت رسائله الإخوانية بفصاحة اللغة،وسهولة الألفاظ، والتنوع الأسلوبى ،وقصر الفقرات ،والتأرجح بين الإيجاز والإطناب، تبعا للمقام والفكرة التى يتغياها الكاتب لدى السامع.
- احتفى فى رسائله بوسائل التصوير المتاحة من تشبيه، واستعارة، وكناية، وتشخيص وتجسيد، وإيحاء ورمز، وكان الرمز من الوسائل التصويرية التى تدور حوله بعض رسائله بأكملها،مما يدل على خصوبة خياله ،وإثراء التراث الأدبى الذى تمخض عن هذه الموهبة الفذة.
- كانت ملكته الشعرية من العوامل الرئيسية فى إثراء نثره بعامة والإخوانى منه بخاصة بالموضوعات الجديدة ،والأساليب الفنية التى تقترب من مدارات الشعر.
- جاءت المحسنات البديعية فى نثره عفوية بعيدة عن التكلف، لما يملكه من مخزون لغوى ومعرفى ،مما جعل أسلوبه أكثر وضوحا، وتحريكا للنفس ،وتأثيرا فيها.

- اعتمد على الروافد التراثية فى نثره اقتباسا وتضمينا إثراء لنسيجه اللغوى، مما يدل على سعة اطلاعه ،وثقافته الدينية والأدبية والتاريخية.
- اهتم بالجانب الإيقاعى فى نثره من سجع، وازدواج، وتوازن بين الفقرات، وترسل ،ولزوم مالا يلزم، حفاظا على الجرس اللفظى. وتنويعا للنغم الموسيقى، وتدبيجا لنثره بعناصر الشعر المختلفة،إيقاعا ،وتزيينا ،وتصويرا.

تلك هى أهم النتائج التى أسفرت عنها هذه الدراسة.

وفى النهاية أدعو جلّ الباحثين بالتوجه إلى هذا التراث الثر لإظهاره ونفض الغبار عن إبداعه ومبدعيه، فهناك الكثير من أدباء الأندلس فى حاجة لمن يزيل عن نتاجهم هذا الغبار، ويخرج به إلى النور. لما فيه من العبقرية النادرة التى تغرى بالبحث والدراسة.

والله من وراء القصد ،وهو الهادى إلى سواء السبيل.

ثبت المصادر والمراجع

أولا: (الكتب)

القرآن الكريم.

١ - الأدب الأندلسى فى عصر الموحدين - د.حكمت الأوسى- مكتبة الخانجى القاهرة سنة١٩٧٦م.

٢ - أدب الرسائل فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى- د.فايز عبدالنبى القيسى- دار البشير للنشر والتوزيع عمان الأردن سنة١٩٨٩م.

٣ - الأدب العربى فى الأندلس- د.عبدالعزيز محمد عيسى مطبعة الاستقامة القاهرة سنة١٩٣٦م.

٤ - الأدب العربى فى الأندلس عصر الانبعاث- بطرس البستانى- جـ٣ ط دارمارون عبود بيروت لبنان- بدون.

٥ - أدب الفكاهة الأندلسى دراسة نقدية تطبيقية - د.حسين خربوش -منشورات جامعة اليرموك- الأردن سنة١٩٨٢م.

٦ - الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه- د.الطاهر أحمد مكى- دار المعارف القاهرة- ط أولى سننة١٩٨٧م.

٧ - الأدب وفنونه - د.محمد مندور- ط دار نهضة مصر للطباعة والنشر- بدون.

٨ - أمراء البيان- محمد كرد على - دار الأمانة بيروت- ط ثالثة سنة١٩٦٩م.

٩ - البرهان فى وجوه البيان - ابن وهب الكاتب - تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثى- مطبعة العانى - بغداد ط أولى سنة١٩٦٧م.

١٠ - البخلاء - الجاحظ - ضبط وشرح وتصحيح أحمد العواملى، وعلى الجارم - المطبعة الأميرية- القاهرة سنة١٩٥٧م.

١١ – البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر عصر ملوك الطوائف – د.سعد شلبى– ط دار نهضة مصر للطباعة والنشر– بدون.
١٢ – تاريخ الأدب الأندلسى عصر سيادة قرطبة– د.إحسان عباس – ط دار الثقافة– بيروت سنة١٩٧٨م.
١٣ – تاريخ الأدب الأندلسى عصر الطوائف والمرابطين– د.إحسان عباس – ط دار الثقافة– بيروت سنة١٩٧٨م.
١٤ – تاريخ الأدب العربى عصر الدول والإمارات – الأندلس – د. شوقى ضيف– ط دار المعارف القاهرة– سنة١٩٨٩م.
١٥ – تاريخ الأدب العربى فى الأندلس – د.إبراهيم أبو الخشب– دار الفكر العربى – ط أولى– سنة١٩٦٦م.
١٦ – التناص نظريا وتطبيقيا – د.أحمد الزغبى – مؤسسة عمون الأردن – ط ثانية– سنة٢٠٠٠م.
١٧ – الجامع الصغير– السيوطى– تحقيق محمد عبدالرؤوف المناوى – ط دار طائر العلم– جدة – بدون.
١٨ – جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس – الحميدى– ط الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة– سنة١٩٦٦م.
١٩ – جواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء لغة العرب – أحمد الهاشمى– مكتبة المعارف بيروت– د.ت.
٢٠ – الحلة السيراء – ابن الأبار – تحقيق د.حسين مؤنس – دار المعارف – ط ثانية – سنة١٩٨٥م.
٢١ – الحيوان – الجاحظ– تحقيق وشرح عبد السلام هارون – دار الجيل بيروت – سنة١٩٩٦م.
٢٢ – خصائص الأسلوب فى الشوقيات – محمد الهادى الطرابلسى – منشورات الجامعة التونسية– تونس – سنة١٩٧٣.
٢٣ – دراسات أدبية– د.عمر الدسوقى– مكتبة نهضة مصر – بدون.

٢٤ – ديوان الخنساء – ط دار صادر بيروت– بدون.
٢٥ – ديوان المعانى–أبى هلال العسكرى–ط– مصر – سنة١٣٥٢هـ .
٢٦ – الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة – ابن بسام الشنترينى– القسم الأول /المجلد الأول– والقسم الثانى /المجلد الأول– تحقيق د.إحسان عباس– ط– دار الثقافة بيروت– سنة١٩٧٨/١٩٧٩م.
٢٧ – الرسالة الأدبية فى النثر الأندلسى – د.فوزى عيسى– دار المعرفة الجامعية – الأسكندرية– سنة١٩٩٨م.
٢٨ – رسائل الثعالبى – ط– بيروت – بدون.
٢٩ – الرسائل السياسية فى العصر العباسى الأول– د.حسين بيوض– منشورات وزارة الثقافة – دمشق– سنة١٩٩٦م.
٣٠ – صبح الأعشى فى صناعة الإنشا – القلقشندى– دار الكتب العلمية بيروت– ط أولى– سنة١٩٩٣م.
٣١ – الصناعتين – أبى هلال العسكرى– تحقيق محمد على البجاوى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم– دار إحياء الكتب العلمية – القاهرة– سنة١٩٥٢م.
٣٢ – الصورة فى الشعر العربى – د.على البطل– دار الأندلس بيروت– ط ثالثة– سنة١٩٨٣م.
٣٣ – العمدة – ابن رشيق القيروانى– تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد– ط دار الجيل – سنة١٩٨١م.
٣٤ – الفن ومذاهبه فى النثر العربى – د.شوقى ضيف– دار المعارف– القاهرة– ط رابعة – سنة١٩٦٥م.
٣٥ – فى نظرية الأدب – من قضايا الشعر والنثر فى النقد القديم – د.عثمان موافى– الجزء الأول– دار المعرفة الجامعية بالأسكندرية– ط رابعة– سنة١٩٨٨م.

٣٦ - كشاف اصطلاحات الفنون - محمد بن على التهانوى- تحقيق عدنان درويش- دار صادر بيروت - الجزء الثانى- سنة١٩٦١م.
٣٧ - المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر- ابن الأثير- تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد- ط البابى الحلبى مصر - سنة١٩٣٩م.
٣٨ - مجمع الأمثال - الميدانى- تعليق سعيد محمد الفحام- دار الفكر العربى للطباعة والنشر والتوزيع- سنة١٩٩٢م.
٣٩ - المطرب من أشعار اهل المغرب- ابن دحية- تحقيق إبراهيم الإبيارى،د.حامد عبدالمجيد،د.أحمد أحمد بدوى، راجعه د.طه حسين- ط دار الكتب المصرية القاهرة - سنة١٩٩٧م.
٤٠ - مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى أهل الأندلس - ابن خاقان- دراسة وتحقيق على محمد شوابكة- مؤسسة الرسالة بيروت- سنة١٩٨٣م.
٤١ - معجم الأدباء - ياقوت الحموى- تحقيق أحمد فريد الرفاعى- مكتبة عيسى البابى الحلبى- سنة١٩٣٦م.
٤٢ - المغرب فى حلى المغرب - ابن سعيد - تحقيق د. شوقى ضيف- ط دار المعارف القاهرة سنة١٩٦٥م.
٤٣ - المناظرة فى الأدب العربى الإسلامى - د.حسين صديق- الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)- القاهرة ط أولى - سنة٢٠٠٠م.
٤٤ - النثر الأدبى الأندلسى فى القرن الخامس أشكاله ومضامينه - د.على محمد- دار الغرب الإسلامى بيروت- سنة١٩٩٠م.
٤٥ - النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى- د.زكى مبارك- دار الجيل بيروت سنة١٩٧٥م.

٤٦ – نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب– المقرى– تحقيق د.إحسان عباس– دار صادر بيروت– سنة١٩٩٨م.
٤٧ – النقد الأدبى الحديث – د.محمد غنيمى هلال– دار نهضة مصر للطبع والنشر –القاهرة– سنة١٩٧٩م.
٤٨ – النقد الأدبى الحديث أصوله ومناهجه – سيد قطب– دار الشروق القاهرة – ط خامسة – سنة١٩٨٣م.
٤٩ – نقد الشعر– قدامة بن جعفر– تحقيق د.محمد عبدالمنعم خفاجى– دار الكتب العلمية بيروت.
٥٠ – نهاية الأرب فى فنون الأدب – النويرى– دار الكتب المصرية – ط أولى– سنة١٩٢٩م.
٥١ – الهجاء والهجاءون فى الجاهلية – د.محمد حسين – المطبعة النموذجية مصر – ط أولى – بدون.

ثانياً: (المعاجم العربية)

٥٢. القاموس المحيط للفيروزآبادى– مؤسسة الرسالة – دار الريان للتراث– ط ثانية – سنة١٩٨٧م.
٥٣. لسان العرب– ابن منظور– ط دار صادر بيروت.
٥٤. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها– أحمد مطلوب– مكتبة لبنان بيروت– سنة١٩٨٨م.
٥٥. المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية– إشراف عبدالسلام هارون– مطبعة مصر القاهرة – سنة ١٩٦٠م.

ثالثاً: (المخطوطات)

٥٦. فن المقامة والرسالة الأدبية فى الأندلس – عبدالرحمن الخانجى– رسالة (دكتوراه) كلية الآداب جامعة القاهرة – سنة١٩٧٤م.

رابعاً: (الدوريات)

٥٩. المجلة العربية للعلوم الإنسانية" مدخل إلى دراسة المعنى بالصورة فى الشعر الجاهلى" د. عبد القادر الرباعى– عدد٦ / مجلد ٢/ الكويت –سنة ١٩٨٢م.